بكر بن عبد الله أبو زيد

تَصْنِيفُ النَّاسِ بَيْنَ الظَّنَّ وَ الْيَقِينِ

قال الله تعالى :
(إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما
ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند
الله عظيم) .
[النور / 15]

دار العاصمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين : اللهم إيـاك نعبد , وإيـاك نسـتعين , وعليك نتوكل , وإليك نسـعى ونحفد . ونصـلي , ونسـلم على خـاتم أنبيائك ورسلك .

أما بعد :

فأنتخب من مزدحم الحياة : العلماء الهداة في مثالهم : العالم العامل بعلمه في خاصة نفسه , ونصـحه لله , ولرسـوله , ولإمامه , ولعمـوم أهل الإسلام , فما أن يـذكر اسم ذلك العـالم إلا ويرفع في العلمـاء العـاملين , فعلمه وعمله متلازمـان أبـدا , كالشـاخص والظل سواء , والله يمن على من يشاء .

فأنتصر له حسبة لله , لا دفاعا عن شخصه فحسب , بل وعن حرمـات

علمـــاء المســـلمين ومنهم دعـــاتهم , ورجـال الحسـبة فيهم ؛ إذ بـدا لقـاء ما يحملونه من الهدى والخير والبيان :
اختراق:((ظاهرة التجريح)) لأعراضـهم بالوقيعة فيهم, وفـــري الجـــراحين في أعراضــهم ,وفي دعــوتهم ,ولما صــنعه (سعادة الفتنة) من وقائع الافتراء, وإلصـــاق التهم,وألـــوان الأذى, ورمي الفتيل هنا وهنـاك , مما لا يخفي في كل مكان وصلته أصواتهم البغيضة .
ولعظم الجناية على العلماء , صار من المعقـــود في أصـــول الاعتقـــاد : ((ومن ذكــرهم بســوء فهو على غــير سبيل)) .
وعلى نحوه كلمات حسان لعدد من علماء الأمة الهداة في العلم والدين[1] .
لــذلك , ولما لهم على العامة والخاصة من فضل في تعليم الناس الخــير , ونشر الســنن , وإماتة الأهــواء والبـدع , فهم قد أوتـوا الحكمة يقضـون بها , ويعلمونها الناس , ولم يتخلفوا في كهــوف ((القعــدة)) الــذين صــرفوا وجــوههم عن آلام أمتهم وقــالوا((هــذا

مغتسل بــارد وشــراب)),وكأنما عنــاهم شوقي بقوله:

وقد يموت كثيرا لا تحسهم
كأنهم من هوان
الخطب ما وجدوا

بل نزلوا ميدان الكفاح , وسـاحة التبصير بالـدين , وهم الـذين يُنبـؤن عن مقيـــــاس العظمة ((العصـــــامية)) التاريخية في أشـــباحهم المغمـــورة , لا العظمة ((العظامية)) الموهومة , كما لبعض أصــحاب الــرتب , والشـــارات , المفرغين لأنفسهم عن

قرن العلم بالعمل .

* إن القيم , والأقـدار , وآثارها الحسان , الممتدة على مسارب الـزمن لا تقــوم بالجــاه , والمنصب , والمــال , والشــهرة , وكيل المــدائح , والألقــاب , وإنما قوامها وتقويمها بالفضل , والجهاد , وربط العلم بالعمل , مع نبل نفس , وأدب جم , وحسن ســـمت , فهـــذه ,

وأمثالها هي الــتي تــوزن بها الرجــال والأعمال .

وإلى هذا الطراز المبارك تشخص أبصار العالم , ولكل نبأ مستقر .

لهذا كله , صار من الواجب على إخـــوانهم , الـــذب عن حرمــــاتهم وأعراضهم بكلمات تجلو صدأ ما ألصـقه (المنشــقون) بهم من الــثرثرة , وتكتم صدى صياحهم في وجه الحق .

وإيضـاح السـبيل الآمن الرشد , العـدل الوسط .

فالآن علينا البيان بألفاظ مقدودة على قدودها بلا طول , ولا قصر , وعلينا وعليك الإنصاف بلا وكس ولا شطط .

فها أنا[2] أقول عن هذه الظاهرة ((تصنيف الناس)) في

واقعهـا, وطرقهـا, ودوافعهـا, وآثارهـا, وسبل علاجها, والقضاء عليها بما لاح لي :

* إن كشف الأهواء , والبدع المضلة , ونقد المقــالات المخالفة للكتــاب ,

والسنة , وتعرية الدعاة إليها , وهجـرهم وتحـذير النـاس منهم , وإقصـائهم , والبراءة من فعلاتهم , سـنة ماضـية في تاريخ المسلمين في إطـار أهل السـنة , معتمـدين شـرطي النقد : العلم , وسلامة القصد .

* العلم بثبـوت البينة الشـرعية , والأدلة اليقينية على المـدعى به في مواجهة أهل الهـوى والبدعة , ودعـاة الضـلالة والفتنة , وإلا كـان الناقد ممن يقفو ما ليس له به علم . وهـذا عين البهت والإثم .

* ويرون بالاتفاق أن هذا الواجب من تمـام النصح لله ولرسـوله - ﷺ - ولأئمة المسـلمين , وعـامتهم . وهـذا شـرط القصد لوجه الله تعـالى , وغلا كان الناقد بمنزلة من يقاتل حمية وريـاء . وهو من مدرك الشرك في القصد .

وهذا من الوضوح بمكان مكين لمن نظر في نصـوص الوحـيين الشـريفين , وسبر الأئمة الهداة في العلم والدين .

وفادة التصنيف

* ولا يلتبس هذا الأصل الإسلامي بما تـــراه مع بلج الصــــبح , وفي غسق الليل من ظهور ضـمير أسـود, وافد من كل فج استبعد نفوسا بضراوة , أراه : " تصنيف الناس " وظـاهرة عجيب نفوذها هي : " رمز الجــراحين " أو :" مـــرض التشكيك وعدم الثقة " حمله فئام غلاظ من النــاس يعبــدون الله على حــرف , فألقوا جلباب الحياء , وشـغلوا به أغـرار التبس عليهم الأمر فضـــلوا , وأضـــلوا , فلبس الجميع أثـواب الجـرح والتعـديل, وتـــدثروا بشـــهوة التجــــريح , ونسج الأحــاديث , والتعلق بخيــوط الأوهــام , فبهــذه الوســائل ركبــوا ثبج التصـــنيف للآخــرين ؛ للتشــهير , والتنفــير , والصد عن سواء السبيل .

ومن هذا المنطلق الواهي , غمسوا ألسنتهم في ركام من الأوهـام والآثـام , ثم بســطوها بإصــدار الأحكــام عليهم , والتشـكيك فيهم , وخدشـهم , وإلصـاق التهم بهم , وطمس محاســــــــنهم , والتشهير بهم , وتوزيعهم أشتاتا وعـزين :

في عقائدهم , وسلوكهم , ودواخل أعمـالهم , وخلجـات قلـوبهم , وتفسـير مقاصـــــدهم , ونيـــــاتهم ... كل ذلك وأضـعاف ذلك مما هنالك من الـويلات , يجري على طرفي, التصنيف : الــديني , واللاديني .

فترى وتسمع رمي ذاك , أو هذا بأنه : خارجي. معـتزلي. أشـعري . طـرقي . إخـــــــواني . تبليغي . مقلد متعصب . متطرف . متزمت . رجعي . أصولي .

وفي السلوك : مداهن . مراء . من علمـاء السـلطان . من علمـاء الوضـوء والغسل .

ومن طـرف لا ديـني : ماسـوني . علماني . شـيوعي . اشـتراكي . بعـثي . قومي . عميل .

* وإن نقبوا في البلاد , وفتشوا عنه العبـاد , ولم يجـدوا عليه أي عـثرة , أو زلة , تصـيدوا له العـثرات , وأوجـدوا له الزلات , مبينة على شبه واهية , وألفاظ محتملة .

* أما إن أفلست جهودهم من كل هـذا رمـوه بـالأخرى فقـالوا : متسـتر . محايد .

إلى غير ذلك من ضروب تطاول سعاة الفتنة والتفرق , وتمزيق الشمل والتقطع .

* وقد جرت هذه الظاهرة إلى الهلكة في ظاهرة أخرى من كثرة التساؤلات المتجنية-مع بسمة خبيثة- عن فلان, وعلان, والإيغال بالدخول في نيته , وقصده , فإذا رأوا ((شيخا)) ثنى ركبتيه للدرس, ولم يجدوا عليه أي ملحظ, دخلوا في نيته, وكيفوا حاله : ليبني نفسه , لسان حاله يقول : أنا ابن من فاعرفوني . ليتقمص شخصية الكبار . يترصد الزعامة .

* وإن ترفقوا , وغلبهم الورع , قالوا : محترف بالعلم .

* وإن تورع ((الجراح)) عن الجرح بالعبارة, أو استنفدها, أو أراد ما هو أكثر إيغالا بالجرح , سلك طريق الجرح بالإشارة , أو الحركة بما يكون أخبث , وأكثر إقذاعا .

مثل : تحريك الرأس , وتعويج الفم , وصرفه , والتفاته , وتحميض الوجه , وتجعيد الجبين , وتكليح الوجه , والتغير , والتضجر .

أو يسأل عنه , فيشير إلى فمه , أو لسانه معبرا عن أنه : كذاب , أو بذيء .

ومثل : تقليب اليد , أو نفضها .

إلى غير ذلك من أساليب التوهين بالإشارة, أو التحريك.

ألا شلت تلك اليمين عند الحركة التوهين ظلما .

وصدعت تلك الجبين عن تجعيدها للتوهين ظلما .

ويا ليت بنسعة من جلد,تربط بها تلك الشفة عند تعويجها للتوهين ظلما.

ولله در أبي العباس النميري , شيخ الإسلام ابن تيمية

- رحمه الله تعالى - إذ وضع النصال على النصال في كشف مكنونات تصرفات الجراحين ظلما فقال[3] :

(فمن الناس من يغتاب موافقة لجلسائه وأصحابه وعشائره مع علمه أن المغتاب بريء مما يقولون أو فيه بعض ما يقولون لكن يرى انه لو أنكر عليهم قطع المجلس واستثقله أهل المجلس ونفروا عنه فيرى موافقتهم

من حسن المعاشــرة وطيب المصــاحبة وقد يغضبون فيغضب لغضــبهم فيخــوض معهم .

ومنهم من يخرج الغيبة في قوالب شـــتى تـــارة في قـــالب ديانة وصـــلاح فيقول : ليس لي عادة أن أذكر أحــدا إلا بخـــير، ولا أحب الغيبة ولا الكـــذب وإنما أخـــبركم بأحواله . ويقــول: والله إنه مســكين أو رجل جيد ولكن فيه كيت وكيت . وربما يقـــــول : دعونا منه الله يغفر لنا وله وإنما قصـــــدهم استنقاصه وهضـــما لجنابه . ويخرجـــون الغيبة في قوالب صلاح وديانة يخادعون الله بــذلك كما يخـــــادعون مخلوقا وقد رأينا منهم ألوانا كثيرة من هذا وأشباهه .

ومنهم من يرفع غـيره ريـاء فـيرفع نفسه , فيقول : لو دعوت البارحة في صـــلاتي لفلان لما بلغي عنه كيت وكيت , لـــيرفع نفسه ويضـــعه عند من يعتقده . أو يقول : فلان بليد الــذهن قليل الفهم وقصـده مـدح نفسه وإثبـات معرفته وأنه أفضل منه .

ومنهم من يحمله الحسد على الغيبة فيجمع بين أمـــرين قـــبيحين : الغيبة ،

والحسد . وإذا أثـنى على شـخص أزال ذلك عنه بما اسـتطاع من تنقصه في قـالب دين وصـلاح ، أوفي قـالب حسد وفجور وقدح ، ليسقط ذلك عنه .

ومنهم من يخرج الغيبة في قالب تمسـخر ولعب ليضـحك غـيره باسـتهزائه ومحاكاته واستصـغار المستهزأ به .

ومنهم من يخرج الغيبة في قالب التعجب ،فيقـول تعجبت من فلان كيف لايفعل كيت وكيت؟ومن فلان كيف وقع منه كيت وكيت , وكيف فعل كيت وكيت فيخرج اسمه في معرض تعجبه .

ومنهم من يخرج الاغتمـام , فيقـول مسكين فلان ، غمني ما جرى له وما تم له فيظن من يسـمعه أنه يغتم له ويتأسف , وقلبه منطو على تشـفي به ولو قـدر لـزاد على ما به ولربما يـذكره عنه أعدائه ليتشفى به . هذا وغـيره من أعظم أمراض القلوب والمخادعـات لله ولخلقه.

ومنهم من يظهر الغيبة في قالب غضب وإنكـار منكـر، فيظهر في هـذا

الباب أشياء من زخارف القـول وقصـده غير ما أظهر والله المستعان) انتهى .

* ومن ألأم المسالك ما تسرب إلى بعض ديـــار الإســـلام من بلاد الكفر من نصب مشـانق التجـريح للشـخص الـذي يـراد تحطيمه والإحبـاط بما يلـوث وجه كرامته .

ويجري ذلك بواسطة سفيه يسافه عن غـــيره متلاعب بدينه قاعد مَزْجَـــرَ الكلب النـابح سـافل في خلقه ممسـوخ الخـاطر صـفيق الوجه مغبـون في أدبه وخلقه ودينه .

* بل ربما سلكوا شأن أهل الأهـواء كما يكشـــــفهم ابن القيم - رحمه الله تعالى - إذ يقول[4] :

(وانظر سرعة المستجيبين لدعاة الرافضة , والقرامطة الباطنية , والجهمية , والمعتزلة , وإكـــــــرامهم لـدعاتهم وبـذل أمـوالهم وطـاعتهم لهم من غـير برهـان أتـوهم به أو آية أروهم إياها غـــــير أنهم دعــــــوهم إلى تأويل تسـتغربه النفـوس وتسـتطرفه العقـول وأوهموهم أنه من وظيفة الخاصة الذين

ارتفعـــوا به عن طبقة العامة فالصـــائر إليه معدود في الخواص مفارق للعوام ,

فلم تر شـــيئا من المـــذاهب الباطلة , والآراء الفاسـدة , المسـتخرجة بالتأويل قوبل الـــــــــداعي إليه الآتي به , أولا بالتكــذيب له , والــرد عليه , بل تـــرى المخــدوعين المغــرورين يجفلــون إليه إجفالا ويـأتون إليه أرسـالا , تـؤزهم إليه شـياطينهم ونفـوهم أزا , وتـزعجهم إليه إزعاجا فيـدخلون فيه أفواجا , يتهـافتون فيه تهافت الفراش في النـار ، ويثوبـون إليه مثابة الطـــير إلى الأوكـــار، ثم من عظيم آفاتـــــه, ســــــهولة الأمر على المتـــأولين في نقل المـــدعوين عن مذاهبهم , وقبيح اعتقـادهم إليهم, ونسخ الهـــدى من صـــدورهم , فـــإنهم ربما اختـــاروا للـــدعوة إليه رجلا مشـــهورا بالديانة والصـــــيانة , معروفا بالأمانة , حسن الأخلاق, جميل الهيئة , فصـــــيح اللسان , صبورا على التقشف , والتزهد , مرتاضا لمخاطبة النـــاس على اختلاف طبقـــاتهم , ويتهيأ لهم مع ذلك من عيب أهل الحق والطعن عليهم والإزراء بهم

ما يظفر به المفتش عن العيـــــــوب , فيقولـون للمغـرور المخـدوع :وازن بين هؤلاء وهـؤلاء, وحكم عقلـك, وانظر إلى نتيجة الحق والباطـــل, فيتهيأ لهم بهـــذا الخداع ما لا يتهيأ بـالجيوش وما لا يطمع في الوصـــول إليه بـــدون تلك الجهة) انتهى .

* وأما وقيعة الفُسَّاقِ في أهل الفضل والدين , فعلى شبه ممن قال الله فيهم :

{ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينـات تعـرف في وجوه الـذين كفـروا المنكر يكـادون يســطون بالـــذين يتلـــون عليهم آياتنا .. }الآية [الحج : 72] .

واستخفاف هؤلاء بالدين يحملهم على إشاعة أشياء عن العلماء , والدعاة منهم , ورجـــال الحســـبة فيهم بقصد الشناعة عليهم .

* ويشبه الجميع في قصد التشنيع : أهل الأهواء على اختلاف فرقهم , وتنوع مشـاربهم , واختلاف مدارســهم , فـإن لهم شـــــهوة جامحة بالوقيعة في أهل السنة , وعلماء الأمة .

* وإذا كانت هذه شناعات في مقام التجـريح , فيقابلها على ألسـنة شـقية : مقام الإطراء الكاذب , برفع أناس فـوق منزلتهم , وتعـديل المجـروحين , والصد عن فعلاتهم , وإن فعل الواحد منهم فعل .

وإذا كانت : ((ظاهرة التجـريح)) وقيعة بغير حق , فإن ((منح الامتيـاز)) بغـــــــير حق , يفسد الأخلاق , ويجلب الغرور والاستعلاء , ويغر الجـاهلين بمن يضرهم في دينهم ودنياهم . ولهـذا تـرى العقلاء يـــأنفون من هـــذه الامتيـــازات السخيفة

وتأبى نفوسهم من هـذه اللوثة الأعجمية الوافدة[5] .

وهذه أحرف نعترضة ثم أقول :

* وهكذا في سيل متدفق سـيال على ألسـنة كالسـياط , دأبها الـتربص , فـالتوثب على الأعـراض , والتمضـمض بـــالاعتراض , مما يوسع جـــراح الأمة , ويلغي الثقة في علمـــاء الملة , ويغتـــال الفضل بين أفرادها , ويقطع أرحامها تأسيسا على خيـــــوط من الأوهـــــام , ومنازلات بلا برهان , تجر إلى فتن تـــدق

الأبواب , وتضـرب الثقة في قـوام الأمة من خيار العباد .

فبئس المنتجع , وبئست الهواية , ويا ويحهم يوم تبلى السرائر يوم القيامة .

****

واجب دفعها

والقسمة كما ترى : واحد ظـالم لنفسه مـــبين , وآخر مظلــــوم . ومن قواعد الملة : ((نصر المســـلم أخـــاه المســـــلم ظالما أو مظلوما)) لا على مقصد أول من تكلم بها : جنـــــدب بن العنـــــبر , إذ أراد بها حمية الجاهلية , ولكن على مقصد النــبي - صـــلى الله عليه وسـلم - إذ أخذ - صـلى الله عليه وســلم - الصـــورة , ونقلها إلى معــنى شريف بمعنى :

نصرته ظالما , بالأخذ على يده , وإبداء النصح له , وإرشاده وتخليصه من بنــاء الأحكـام على الظنــون والأوهــام , وإعمـــال اليقين مكـــان الظن , والبينة محل الوسوسة , والصــمت عن القـذف بالباطل والإثم , ومبدأ حسن النية , بدل سوء الظن والطوية , وتحذيره من نقمة الله وسخطه .

ونصرته مظلوما , بردع الظالم عنه , والإنصـاف له منه , والـدفع عن عرضه وكرامته , وتسليته , وتذكيره , بماله من الأجر الجزيل , والثـواب العـريض , وأن الله ناصره - بمشيئته - ولو بعد حين .

وهـذه النصـرة لهما من محاسن الإسلام , وأبواب الجهاد , وتعلن النذارة لـذوي النفـوس الشـريرة ملة الشـقاق والشغب أن على الدرب رجالا بالمرصاد , على حد قول الله تعالى :

{ فشرد بهم من خلفه لعلهم يذكرون } [الأنفال : 57] .

فتنقمع نفوسهم وهم يسفون الملل , وينطوي عن الساحة الشقاق والشغب , وتلقين الناس السؤال عن فلان وعلان , وما يجره من تعب من غير أرب .

لهذا جرى القلم في عـرض ما هو كـائن في معيـــار الشـــرع المطهر , عسى أن يكون وسـيلة إنقـاذ لمن أضـناه مشـوار التجريح والتصـــنيف , فيلقي عصا التســـيار قبل الممات .

وسلوة لمظلوم مضرج برماح الجراحين , فتكشف الضر , وتبعد السوء .

وتحذيرا لكل عبد مسلم , من سبيل من احاطت به خطيئته .

وعسى أن يكون في هذه الأوراق تطهير لجماعة المسلمين من هذه الرواسب , وأمن من هذه المخاوف , ونرفع بها الغطاء عن هذه المحنة الدفينة ؛ لإطفاء جذوتها وكتم حملتها , خشية أن تعمل عملها فتفرق كلمة المسلمين , وتوجد الفروق بينهم , فيتخطفهم الناس , ويبقى صوت الحق ضئيلا , وحامله ضعيفا .

ومع هذا فلن تراها سجلا للحوادث والواقعات المرة , فهي كثيرة , وصاحبها حامل لمسؤليتها { فكلا أخذنا بذنبه} من"الآية : 40 العنكبوت". لكنها أحرف جريئة في ورقات قليلة , تقرع جرس النذارة من هذه المكيدة: (تصنيف الناس) اعتداء, و((تجريحهم)) بغيا وعدوانا , فتكشف هذه الظاهرة بجلاء , وتواجه وجوه الذين يتعاملون معها بنصوص واضحة , وقوارع من

نصـوص الوحـيين ظـاهرة , فـإلى فاتحة البيان لها :

* إن جارحة اللسان الناطق بالكلام المتواطأ عليه , أســـاس في الحيـــاة والتعـــايش دينا ودنيا , فبكلمة التوحيد يدخل المرء في ملة الإسلام , وبنقضـها يخــرج منها , وبين ذلك مراحل انتظمت أبـــواب الشـــريعة , فلو نظـــرت إلى ((الكلام)) وما بـــني عليه من أحكـــام لوجــدت من ذلك عجبا في : الطهــارة , والصــلوات , وســائر أركــان الإســلام , والجهاد , و البيوع , والنكـاح , والطلاق , والجنايات , والحدود , والقضاء , ...

بل أفردت أبواب في الفقهيات كلها لما تلفظ به هذه الأداة : ((اللسان)) :

في أبـواب : القـذف , والـردة , والأيمـــان , والنـــذور , والشـــهادات , والإقرار .

وفي اصل الأصول : ((التوحيد)) يدور عليه البحث والتأليف .

فكم من كلام أوجب ردة فقتلا, أو واجب قذفا فجلدا, أو أوجب كفـارات أو نزعت بسببه حقوق فـردت مظـالم إلى أهلها . أو إقــرار أوجب بمفــرده حكما ,

ولذا قـالوا : ((إقـرار المـرء على نفسه أقوى البينات)) .
وهكـــذا من منـــاهج الشـــريعة المباركة الغراء ؛ ولهذا تكاثرت
نصـوص الوحـيين الشـريفين في تعظيم شـــأن الســـان ترغيبا وترهيبا , وأفـــرد العلمـــــاء في جمع غفـــــير من مفرداته المؤلفـات ففي الـترغيب : الـدعوة إلى الله على بصـيرة , ونشر العلم بالـدرس , وفضل الصدق , وكلمة الحق ...
وفي الـــترهيب : عن الغيبة , والنميمة , والكـــذب , وآفـــات اللســـان الأخرى .
وقد جمعت في ذلك ((معجم المنـــاهي اللفظية)) وبســـطت أصـــوله الشرعية في مقدمته .
* وإذا علمت أن النبي -صلى الله عليه وسـلم- قـال فيما صح عنه :" من يضمن لي ما بين لحييه وما بين فخذيه : أضـــــــــمن له الجنـــــــــة".علمت أن هـــذه((الضـــمانة))لا تلعق إلا على أمر عظيم .
وهذه بمؤداها ((رقابة شرعية)) على حفظ أعـــراض المســـلمين وكف

الأذى عنهم في ((العــرض , والــدين , والنسب , والمال , والبدن , والعقل)) .
ولما جمع الله شـمل المسـلمين أعلنها النــبي - ﷺ - في حجة الـــوداع , فقـــــال - ﷺ - في خطبته الجامعة على مســــمع يزيد عن مائة ألف نفس من المسلمين :
" إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حــرام عليكم كحرمة يــومكم هــذا في شهركم هذا في بلدكم هـذا ألا هل بلغت " .

طرق التصنيف

وإذا علمت فُشُوَّ ظاهرة التصنيف الغلابة ,وإن إطفاءها واجب , فــاعلم أن المحــترفين لها ســلكوا لتنفيــذها طرقا منها :
* أنك ترى الجراح القصاب , كلما مر على ملأ من الـــدعاة اختـــار منهم ((ذبيحا)) فرماه بقذيفة من هذه الألقاب المرة,تمرق من فمه مروق السـهم من الرميــة,ثم يرميه في الطريــق, ويقـول: أميطوا الأذى عن الطريق,فــإن ذلك من شعب الأيمان؟؟؟

* وترى دأبه التربص,والترصد:عين للـــترقب وأذن للتجســـس,كل هـــذا للتحريش,وإشعال نـار الفتن بالصـالحين وغيرهم .

* وتـرى هـذا ((الرمز البغيض)) مهموما بمحاضـــرة الـــدعاة بسلســـلة طويل ذرعها,رديء متنها, تجر أثقـالا من الألقـــاب المنفـــرة, والتهم الفـــاجرة ,ليســـلكهم في قطـــار أهل الأهـــواء، وضلال أهل القبلة, وجعلهم وقود بلبلة , وحطب اضـــطراب وبالجملة فهـــذا ((القطيع)) هم أسوأ ((غزاة الأعراض بالأمراض)) والعض بالباطل في غوارب العبـــاد , والتفكه بها , فهم مقربـــون بأصـــفاد : الغل , والبغضـــاء , والحسد , والغيبة , والنميمة , والكـذب , والبهت , والإفك , والهمز , واللمز , جميعها في نفاذ واحد .

إنهم بحق : ((رمز الإرادة السيئة)) يرتعون فيها بشهوة جامحة .

نعوذ بالله من حالهم , لا رعوا .

آثارها

* فيا لله كم لهـذه : ((الوظيفة الإبليســية)) من آثـــار موجعة للجـــراح

نفسه؛ إذ سـلك غـير سـبيل المؤمـنين . فهو لقىً, منبوذ , آثم , جـان على نفسه , وخلقه , ودينه , أمته .

من كل أبواب سوء القول قد أخذ بنصيب , فهو يقاسم القاذف , ويقاسم : البهات , والقتات , والنمام , والمغتاب , ويتصـدر الكـذابين الوضـاعين في أعز شـيء يملكه المسـلم : ((عقيدته وعرضه)) .

قال الله تعالى :

{ والـذين يـؤذون المؤمـنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا } [الأحزاب : 58] .

وهذا البهت قد يوجب : ((ردة)) للقائل نفسه , كما لو قـال لمن عمل بالإسـلام : رجعي , متخلف , كما تـرى تقريـره في أبـواب الـردة من كتب الشريعة الحديثية والفقهية ؛ ولهـذا ألف ابن قطلوبغا, رسـالة باسـم:((من يكفر ولم يشعر)).

وهذا أسوأ أثر على المتفكهين بهذه الظاهرة فضلا عن آثارها الأخـرى عليـه: منها سـقوط الجـراح من احـترام الآخـرين, وتقويمه بأنه خفيف , طيَّاش ,

رقيق الديانة , صاحب هوى, جـره هـواه وقصـــور نظـــره عن تميـــيز الحق من الباطل , إلى مخاصـــــــــمة المحق , والهجوم عليه بغير حق .

بل وسوأة عظمى احتساب المبتلى هـــذا السـعي بالفســاد , من الـــدين , وإظهاره بلباس الشرع المتين , والتلــذذ بذكره , ونشره .

حقا لقد أتعب التـــاريخ , وأتعب نفسه , وآذى التاريخ , وآذى نفسه , فلا هو قـال خيرا فغنم , ولا سكت فسلم .

فإلى قائمة الممقوتين في سجل التاريخ غير مأسوف عليهم :

إن الشقي بالشقاء مولع لا يملك الرد له إذا أتى

* وكم أورثت هذه التهم الباطلة من أذى للمكلوم بها من خفقة في الصـدر , ودمعة في العين , وزفـــــــرات تظلم يرتجف منها بين يـــدي ربه في جـــوف الليل , لهجا بكشـــفها مــــادّاً يديه إلى مغيث المظلومين , كاسر الظالمين .

والظالم يغط في نومه , وسهام المظلـــومين تتقاذفه من كل جـــانب , عسى أن تصيب منه مقتلا .

فيا لله : " ما أعظم الفرق بين من نام وأعين الناس ساهرة تدعو له , وبين من نام وأعين الناس تدعو عليه[6] " .

* وكم جـرت هـذه المكيـدة من قارعة في الـديار , بتشـويه وجه الحق , والوقـوف في سـبيله , وضـرب للـدعوة من حدثاء الأسـنان في عظمـاء الرجـال باحتقارهم وازدرائهم , والاستخفاف بهم وبعلـومهم , وإطفـاء مـواهبهم , وإثـارة الشحناء , والبغضاء بينهم .

ثم هضم لحقوق المسلمين : في دينهم , وعرضهـم .

وتحجيم لانتشـــار الـــدعوة بينهم , بل صناعة توابيت , تقبر فيها أنفاس الدعاة ونفائس دعوتهم ؟؟

انظر : كيف يتهافتون على إطفـاء نورها , فالله حسبهم ,

وهو حسيبهم .

وهذا مطمع مؤكد من خطط أعداء الملة لعـــدائها , والاســـتعداء عليها في منظــومتهم الفَسْــلَة لكيد المســلمين , ومنها :

أن الكفار تكلموا طعنا في راوية الإســلام أبي هريــرة- رضي الله عنــه- دون غـــيره من الصـــحابة-رضي الله عنهم-؛ لأنه أكثرهم رواية, فإذا استسهل الطعن فيه, تبعه من دونه رواية.

لهذا فقد أطبق أهل الملة الإسلامية , على أن الطعن في واحد من الصـحابة - رضي الله عنهم - : زندقة مكشــوفة .

قـــال أبو زرعة الـــرازي – رحمه الله تعالى[7] - :

" إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصـحاب رسـول الله- ﷺ-فـاعلم أنه زنـــديق؛ وذلك أن رســول الله- ﷺ- حــق، والقــرآن حــق، وما جـاء به حــق، وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة، وهؤلاء يريــدون أن يجرحــوا شــهودنا؛ ليبطلــوا الكتاب والسنة، والجـرح بهم أولى، وهم زنادقة " .

وقد أجرى العلماء هذا الحكم بمن قـــدح في أحد من حملة الشـــرع المطهر ، علماء الأمة العـاملين ؛ لأن القـدح
بالحامل يفضي إلى القـــدح بما يحمله من رسـالة البلاغ لـدين الله وشـرعه ؛ ولهذا أطبق العلماء – رحمهم الله تعالى – على أن من أسـباب الإلحـاد :" القـدح بالعلماء ".

قال الدورقي – رحمه الله تعالى -:

" من سمعته يذكر أحمد بن حنبل بسوء فاتهمه على الإسلام " .

وقالها أحمد – رحمه الله تعـــالى – في حق يحـــيى بن معين ، وقيلت في حق أبي زرعة ، وعكرمة – رحم الله الجميع - .

" قال سفيان بن وكيع : أحمد عندنا محنة ، من عاب أحمد فهو عنـدنا فاسق " .

وقال غيره : " احمد محنة به يعرف المسلم من الزنديق " .

وقيل فيه :

أضحى ابن حنبل محنة مأمونة

وبحب أحمد يعرف المتنسك
وإذا رأيت لأحمد متنقصا
فاعلم بأن ستوره ستهتك

فأهل السنة يمتحن بمحبتهم فيتميز أهل السـنة بحبهم ؛ وأهل البدعة ببغضهم :

وقال الحافظ ابن عساكر – رحمه الله تعال[8]ى - :

" واعلم يا أخي وفقنا الله وإياك لمرضاته ، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته ، أن لحوم العلماء – رحمة الله عليهم – مسمومة ، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة ؛ لأن الوقعية فيهم مرتع وخيم ، والاختلاف على من اختاره الله منهم لنعش العلم خلق ذميم ...." .

ومازالت ثائرة أهل الأهواء ، توظف هذه المكيدة في ثلب علماء الأمة . فقد لجوا في الحط على شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – لأنه عمدة في القرون المتأخرة لإحياء منهج السلف .

ونشروا في العالم التشـنيع على دعوة علمـاء السـلف في قلب الجزيـرة العربية بالرجوع إلى الوحيين الشـريفين ، ونبزهم بشتى الألقاب للتنفير .

وفي عصرنا الحاضر يأخذ الدور في هـــذه الفتنة دورته في مســـلاخ من المنتسبين إلى الســنة متلفعين متلفعين بمرط ينسبونه إلى الســلفية – ظلما لها – فنصبوا أنفسهم لرمي الدعاة بالتهم

الفـــاجرة ، المبنية على الحجج الواهية ، واشتغلوا بضلالة التصنيف .

وهذا بلاء عريض ، وفتنة مضلة في تقليص ظل الــدين ، وتشــتيت جماعته ، وزرع البغضـــاء بينهم ، وإســقاط حملته من أعين الرعية ، وما هنالك من العنـــاد ، وجحد الحق تارة ، ورده أخرى .

صــدق الأئمة الهــداة : إن رمي العلمــاء بالنقــائص ، وتصــنيفهم البــائس من البينات ، فتح باب الزندقة .

* ويا لله كم صــدت هــذه الفتنة العميــــاء عن الوقــــوف في وجه المد

الإلحـــادي ، والمد الطـــرقي ، والعبث الأخلاقي ، وإعطـــــاء الفرصة لهم في استباحة أخلاقيات العباد ، وتـأجيج سـبل الفساد والإفساد .

إلى آخر ما تجره هذه المكيـدة المهينة من جنايـات على الـدين ، وعلى علمائه ، وعلى الأمة ، وعلى ولاة أمرها .

وبالجملة فهي فتنة مضلة ، والقائم يها ((مفتـــون)) و ((منشق)) عن جماعة المسلمين .

****

سندها

* وبعد الإشـــارة إلى آثـــار ((المنشـقين)) وغوائل تصـنيفهم فإنك لو سألت : ((الجـراح)) عن مسـتنده ، وبينته على هـذا ((التصـنيف)) الـذي يصك بع العباد صك الجندل ، لأفلت يديه ، يقلب كفيه ، متلعثما اليـوم بما بـرع به لسانه بـالأمس ، ولوجـدت نهاية ما لديه من بينات هي :

وساوس غامضة ، وانفعالات متوترة ، وحسد قاطع .

وتوظيف لسـوء الظن ، والظن أكذب الحديث .

وبناء الزعم ، وبئس مطية الرجل زعموا .

فالمنشق يشيد الأحكام على هذه الأوهام المنهارة ، والظنون المرجوحة ، ومـــتى كـــانت أساسا تبـــنى عليه الأحكام[9] ؟؟

ومن آحادها السخيفة الـتي يـأتمرون ويتلقون عليها للتصنيف:

* فلان يترحم على فلان ، وهو من الفرقة الفلانية ؟

فانظر كيف يتحرجون رحمة الله ، ويقعـــون في أقـــوام لعلهم قد حطـــوا رحالهم في الجنة ، إضافة إلى التصنيف بالإثم .

* إنه يذكر فلانا بالدرس ، وينقل عنه : والذي تحرر لي أن العلماء لا ينقلون عن أهل الأهواء المغلظة ، والبدع الكبرى – المكفرة - ، ولا عن صاحب هوى أو بدعة في بدعته

، ولا متظاهر ببدعة متسافه بها ، داعية إليها .
وما دون ذلك ينقلـون عنهم على الجادة أي : سبيل الاعتبار ، كالشأن في سـياق الشـواهد والمتابعـات في المرويات .
* ومن مستندات ((المنشقين)) الجـراحين : تتبع العـثرات ، وتلمس الزلات ، والهفوات .
فيجرح بالخطأ ، ويتبع العالم بالزلة ، ولا تغفر له هفوة .
وهذا منهج مرد .
فمن ذا الذي سلم من الخطأ – غير أنبيـاء الله ورسـله - ، وكم لبعض المشـاهير من العلمـاء من زلات ، لكنها مغتفـرة بجـانب ما هم عليه ما هم عليه من الحق والهدى والخير الكثير :
من الذي ما ساء قط   ومن له الحسنى فقط
ولو أخذ كل إنسـان بهـذا لما بقي معنا أحد ، ولصـرنا مثل دودة القز ، تطـوي نفسها بنفسها حتى تموت .
وانظر : ما ثبت في ((الصـحيحين)) عن جـابر – رضي الله عنه – " أن

رسـول الله - ﷺ- نهى أن يطـرق الرجل أهله ليلا يتخونهم أو يلتمس عثراتهم " .

هذا وهم أهل بيت الرجل وخاصته فكيف بغيرهم ؟

وما شرع أدب الاستئذان ، وما يتبعه من تحسيس أهل البيت بدخول الداخل إلا للبعد عن الوقـــوع على العـــثرات فكيف بتتبعها .

* ومن طرائقهم :

تــرتيب ســوء الظن ، وحمل التصـــرفات قـــولا ، وفعلا على محامل السوء والشكوك .

ومنه : التنـاوش من مكـان بعيد لحمل الكلام على محامل الســـوء بعد بــذل الهم القــاطع للترصد ، والــتربص ، والفرح العظيم بأنه وجد على فلان كــذا ، وعلى فلان كذا .

ومـتى صـار من دين الله : فـرح المسلم بمفارقة أخيه المسلم للآثام .

ألا إن هذا التصيد ، داء خبيث متى ما تمكن من نفس أطفأ ما فيها من نور الإيمـــان ، وصـــير القلب خرابا يبابا ، يسـتقبل الأهـواء والشـهوات، ويفرزهـا. نعوذ بالله من الخذلان .

ومن هـذا العـرض يتـبين أن :
((ظـاهرة التصـنيف)) تسـري بـدون مقومـات مقبولة شـرعا ، فهي مبنية على دعـوى مجـردة من الـدليل ، وإذا كـانت كـذلك بطل الادعـاء ، واضـمحلت الدعوى ، وأصبحت غير مسموعة شرعا ، وآلت حـال المـدعي إلى مـدعى عليه تقـام الـدعوى بما كـذب وافـترى وفي الحديث أن النبي - ﷺ - قال :
" لو يعطى الناس بدعواهم ... " الحديث .

دوافعها

* حينئذ يـأتي السـؤال : مـاهي الأسباب الداعية إلى شـهوة التجـريح بلا دليل ؟

والجواب : أن الدافع لا يخلو :

* إما أن يكون الـدافع ((عـداوة عقدية في حسـبانه)) فهـذا لأربـاب التوجهـات الفكرية ، والعقدية المخالفة للإسلام الصحيح في إطار السلف .

وهؤلاء هم الذين ألقوا بذور هذه الظاهرة في ناشئتنا .

* أو يكون الدافع من تلبيس إبليس وتلاعبه في بعض العباد بداء الوسواس ،

، وكثـيرا ما يكـون في هـؤلاء الصـالحين من نفث فيهم أهل الأهـــــــواء نفثة ، فتمكنت من قلـوبهم ، وحسـبوها زيـادة في التـــوقي الـــورع ، فطـــاروا بها كل مطار حـتى أكلت أوقـاتهم ، واسـتلهمت جهـودهم ، وصـدتهم عما هم بحاجة إليه من التحصـيل ، والوقـوف على حقـائق العلم والإيمان .

ولهذا كثرت أسـئلتهم عن فلان ، وفلان ، ثم تنزلت بهم الحال إلى الوقوع فيهم .

وكأن ابن القيم – رحمه الله تعالى – شاهد عيـان لما يجـري في عصـرنا إذ يقول[01] :

" ومن العجب أن الإنسان يهـون عليه التحفظ والاحـتراز من أكل الحـرام ، والظلم ، والزنا ، والسـرقة ، وشـرب الخمر ، ومن النظر المحرم ، وغير ذلك .

ويصـعب عليه التحفظ من حركة لســانه ، حــتى نــرى الرجل يشــار إليه بالـدين ، والزهد ، والعبـادة ، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقي لها بالا

، وينزل بالكلمة الواحـدة منها أبعد ، بين المشرق والمغرب .

وكم تـرى من رجل متـورع عن الفــواحش والظلم ولســانه يفــري في أعـراض الأحيـاء والأمـوات ولا يبـالي ما يقول)انتهى .

* أو يكون الدافع : ((داء الحسد والبغي والغـيرة)) وهي أشد ما تكـون بين المنتســـبين إلى الخــــير والعلم ، فـإذا رأى المغبـون في حظه من هبـوط منزلته الاعتبارية في قلـــوب الناس ، وجفولهم لهم عنه ، بجانب مـــا كتب الله لأحد أقرانه من نعمة – هو منهـــــا محــــروم - ، من القبــول في الأرض ، وانتشــار الــذكر ، والتفــاف الطلاب حوله ، أخذ بتـــوهين حاله ، وذمه بما يشبه المدح ، فلان كـذا إلا أنه ...

وقد يسلك – وشتان بين المسلكين – صـنيع المتـورعين من المحــدثين في المجـروحين كحركـات التـوهين ، وصـيغ الدعاء الـتي تشـير إلى المؤاخـذات ، والله يعلم أنه لا يريد إلا التمـــــريض ،

يفعل هـــذا كمـــدا من بـــاب الضـــرب للمحظوظين بوساوس المحرومين .
وكل هذا من عمل الشيطان .
ومن هنا تبتهج النفس بدقة نظر النقـــاد ؛ إذ صـــرفوا النظر عما ســـبيله كذلك من تقادح الأقران .
ولهذا تتابعت كلمات السلف كما روى بعضا منها ابن عبدالبر – رحمه الله تعالى – بأسـانيده في : ((جامعه)) عن ابن عبـــاس –ر ضي الله عنهما – ومالك بن دينـــــار ، وابن حـــــازم – رحمهم الله تعالى – ومنها :
" خـذوا العلم حيث وجـدتم ، ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضــهم على بعض ، فـــإنهم يتغـــايرون تغـــاير الـــتيوس في الزريبة " .
وقال أبي حازم :
" العلمـاء كـانوا فيما مضى من الزمان إذا لقي العـالم من هو فوقه في العلم كـــان ذلك يـــوم غنيمة ، وإذا لقي من هو مثله ذاكـــــره ، وإذا لقي من هو دونه لم يزه عليه حتى كان هـذا الزمـان ، فصار الرجل يعيب من هو فوقه ابتغاء أن ينقطع منه حتى يرى الناس أنه ليس

به حاجه إليه ، ولا يـــذاكر من هو مثله ، ويزهى على من هو دونه ، فهلك النـاس " .

وصدق النبي - ﷺ- فيما رواه حواري رسـول الله - ﷺ- وابن عمته : الزبـير بن العـوام – رضي الله عنه – أن رسـول الله - ﷺ- قال :

" دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد ، والبغضـاء ، البغضـاء هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين ، والذي نفسي بيده لا تـدخلوا الجنة حـتى تؤمنـوا , ولا تؤمنـوا حـتى تحـابوا، ألا

---

[1] أنظرها : (ص / 26 – 28) .

[2] هل يقال : " هاأنا " أو : " هاأنا ذا " فيه بحث أنظره في " التحرير والتدوير " : (1 / 586-588) . لكن لم يظهر لي تماماً توجيهه .

[3] " مجموع الفتاوى " : (28 /237 – 238) .

[4] " الصواعق المرسلة " : (1 / 353) .

[5] في رسالتي : " تغريب الألقاب العلمية " . زيادة بيان لها .

[6] من كلام ابن القيم - رحمة الله تعالى - .

[7] " فتح المغيث " : (4/94).

[8] " تبين كذب المفترى " : (ص/29).

[9] أنظر : " الفتاوى " : (13/110 - 112).

[01] " الداء والدواء" : (ص/187).

أنـــبئكم بما يثبت ذلك لكم : أفشـــوا السلام بينكم ".

* أو الدافع : ((عـداوة دنيوية))

فكم أثارت من تباغض وشـحناء ، ونكد ، ومكابـــدة ، فهـــؤلاء دائما في غصة من حيـاتهم ، وتحـرق على حظـوظهم ، ولا ينالون شيئا .

" وإنما أهلك الناس الدرهم والدينار ".

واللبيب يعرف شرح ذلك .

وعلى كل حال فإن الهوى هو الذي يحمل الفـريقين على هـذه الموبقـات ، وقد يجتمع في الإنسان أكثر من دافع .

وأشدهم طوعا للهـوى ، أكـثرهم إغراقا في هـذه الـدوافع ؛ إذ إن إصـدار أي حكم لا يخلو من واحد من مأخذين لا ثالث لهما :

1- الشـريعة : وهي المسـتند الحق وموئل ((العدل)) ، وماذا بعد الحق إلا الضلال .

2- الهــوى : وهو المأخذ الــواهي الباطل المــذموم ، ولا يــترتب عليه حق أبدا .

والهوى – نعوذ بالله منه – هو أول فتنة طرقت العالم ، وباتباع الهــوى ضل إبليس ، وبه ضل كثــــــير من الأمم عن اتبــاع رســلهم وأنبيــائهم كما في قصص القرآن العظيم ؛ ولهــذا حكم الله – وهو أعـدل الحـاكمين – أنه لا أحد أضل ممن اتبع هواه ، فقال سبحانه :

{ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله } [القصص : 50]

وقال تعالى

{ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الــذين يضــلون عن ســبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب } [ص : 66]

ولـذلك قيل للمـائلين عن ســبيل القصد :(أهل الأهواء) ؛ وذلك لاتبـاعهم الهوى ، أو لأنها تهوي بأهلها في النار .

* وإذا كان أهل الأهواء قد نجحوا في نفثتهم المحمومة هـــــــذه ، ففتح الأغــرار بها كــوة على علمــائهم ، فــإن اللادينــيين قد حولوها إلى بــاب مفتــوح

على مصـــراعيه ، فـــألحقوا كل نقيصة ، وســخرية في كل متــدين وعبد صــالح ، وأما العلمـــاء فقد جعلـــوهم ((وقـــود البلبلة وحطب الاضطراب)) .

الاشتقاق بها

* وإذا كـانت هـذه الظـاهرة مع شـــيوعها ، وانتشـــارها ، واهية الســـند ، معدومة البينة ، فمن هو الـــذي تـــولى كبرها ، ونفخ في كيرها ، وســــعى في الأرض فســادا بنشــرها ، وتحريك الفتن بها ، والتحريش بواسطتها ؟؟؟

والجواب : هم أرباب تلك الدوافع، ولا تبتعد فتبـــتئس وخل عنك التحـــذلق والفجور، نعوذ بالله من أمراض القلـوب .

والنفس لا تنقطع حسرات هنا ، فإن من في قلبه نـــوع هـــوى وبدعة ، قد عـرفت هـذه الفعلات من جـادتهم الـتي يتوارثونها على مــدى التــاريخ ، وتــوالي العصر ، وقد نبه على مكايدهم العلماء ، وحذروا الأغرار من الاغترار ...

لكن بلية لا لعاً لها ، وفتنة وقى الله شرها حين سرت في عصـرنا – ظـاهرة الشـــغب هـــذه إلى من شـــاء الله من

المنتسبين إلى السنة , ودعوى نصرتها ، فاتخــذوا ((التصــنيف بــالتجريح)) دينا وديدناً ، فصـاروا إلبـاً على أقـرانهم من أهل الســـنة ، وحربا على رؤوســـهم ، وعظمـــائهم ، يلحقـــونهم الأوصـــاف المرذولة ، و ينــــبزونهم بالألقــــاب المستشنعة المهزولة ، حـتى بلغت بهم الحـال أن فـاهوا بقـولتهم عن إخـوانهم في الاعتقاد ، والسنة ، والأثر:(هم أضر من اليهـود والنصـارى) و (فلان زنـديق)؟؟

وتعـاموا عن كل ما يجتـاب ديـار المسلمين، ويخترق آفـاقهم، ومن الكفر ، والشـرك ، والزندقة ، والإلحـاد ، وفتح سبل الإفساد والفساد ، وما يفد في كل صـباح ومسـاء من مغريـات وشـهوات ، وأدواء وشـــبهات ، تنتج تكفـــير الأمة ، وتفسـيقها ، وإخراجها نشأ آخر منسـلخا من دينه وخلقه .

وهنا ، ومن هـذا ((الانشـقاق)) تشفى المخالف بواسطة

((المنشـــقين)) ووصل العـــدو من طــريقهم ، وجنــدوهم للتفريق من حيث يعلمون أولا يعلمــون ، وانفض بعضٌ عن

العلمــاء ، والالتفــاف حــولهم ، ووهنــوا حالهم ، وزهدوا الناس في عملهم.

وبهـؤلاء ((المنشـقين)) آل أمر طلائع الأمة ، وشـــــــبابها إلى أوزاع ، وأشتات ، وفرق ، وأحزاب، وركض وراء السراب، وضياع في المنهج ، والقـدوة ، وما نجا من غمرتها إلا من صـــــــحبه التوفيق ، وعمر الإيمان قلبه .

ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وهـذا(الانشـقاق) في صف أهل السـنة لأول مـرة– حسـبما نعلم – يوجد في المنتسبين إليهم من يشاقهم، ويجند نفسه لمثـــــافنتهم ، ويتوسد ذراع الهم لإطفــاء جــذوتهم، والوقــوف في طريق دعــوتهم، وإطلاق العنـان للسـان يفـري في أعراض الـدعاة ويلقي في طـريقهم العوائق في:(عصبية طائشة).

فلو رأيتهم – مساكين يرثى لحالهم وضياعهم – وهم يتواثبــون ، ويقفـزون ، والله أعلم بما يوعــــون ، لأدركت فيهم الخفة والطيش في أحلام طــير . وهــذا شــأن من يخفق على غــير قاعــدة ولو حاججت الواحد منهم لما رأيت عنـده إلا قطعة من الحمـاس يتـدثر بها على غـير

بصـيرة ، فيصل إلى عقـول السـذج من بـاب هـذه الظـاهرة : الغـيرة . نصـرة السنة . وحدة الأمة . وهم أول من يضع رأس المعـول لهـدمها ، وتمزيق شـملها ...

لكن مما يطمئن أن هذه : ((وعكة)) مصـــيرها إلى الاضــمحلال و ((لوثة وافــدة)) تنطفي عن قــريب ، وعــودة ((المنشـقين)) إلى جماعة المسـلمين أن تعلم :

* أن هذا التبدد يعيش في أفراد بلا أتباع ، وصدق الله :

{ وما للظـالمين من أنصـار } [البقرة : 270] .

ومن صالح الدعاء :

{ ربنا لا تجعلنا من القوم الظالمين } [الأعراف : 47] .

وقوله تعالى :

{ رب فلا تجعلني في القوم الظالمين } [المؤمنين : 94]

* وأن هـؤلاء الأفـراد يسـيرون بلا قضية .

* وأن جولانهم : هو من فـزع وثبة الانشـقاق ؛ ولهـذا تلمس فيهم زعـارة ، وقلة توفيق .
فلا بد 0 بإذن الله تعالى – أن تخبوا هـــــذه اللوثة ، ويتقلص ظلها ، وتنكتم أنفاسـها ، ويعـود ((المنشق)) تائبا إلى صف جماعة المسلمين ، تاليا قــول الله تعالى { ربي نجني من القوم الظـالمين } [القصص : 21] .

تبعة فشوها

* ثم يأتي سؤال ثان :
من الذي يحمل تبعة فشو ((ظاهرة التصـــنيف)) فالانشـــقاق عن ((أهل السنة)) ؟؟
يحتمل تبعتها فريقان :
الأول : الغــافلون عن تنفس التوجهات الفكرية، والعقديـة، والمادية ، وزرعها في أفئدة الناشئة .
وأصله : التفريط في الغيرة على الحق ، والأمر بـــــالمعروف والنهي عن المنكر ، ومد بســـــاط : عسى ، ولعل .
الثاني: غياب العـالم القـدوة عن القيـام بدوره الجهـادي الـتربوي - بلا تذبـذب -

كل بما فتح الله عليه حسب وسعه وطاقته .

لهذين الأثر العظيم في تنفس هذه الظاهرة .

العمل لمواجهتها

هذه هي حقيقة هذه الظاهرة ، وآثارها ، ومستندها ، ودوافعها ، ومتولي كبرها ، وأسباب فشوها ، وتفنيدها .

حينئذ يأتي سؤال يفرض نفسه :

ما العمل لمواجهتها ، وكف بأسها عن المسلمين ؟

فأقول :

العمل في أصول إلى ثلاث فئات :

1- إلى ((الجـراح)) المتلبس بظاهرة التصنيف .
2- إلى الذي وجه إليه التصنيف .
3- أصول لهما، ولكل مسلم يريد الله والدار الآخرة.

فإلى بيانها :

إِلَى مُحْتَرِفِ التَّصْنِيفِ

قَدِّر لِرِجْلِكَ قَبْلَ الخَطْوِ مَوْضِعَهَا
فَمَنْ عَلاَ زَلَقاً عَنْ
غِرَّةٍ زَلَجَا

إلى محترف التصنيف

كانت العـرب في جاهليتها تعـاقب الشـاعر الهجـاء بشد لسـانه بنسـعة - سـير من جلد مفتـول - أو يشـترون منه

لسـانه بـأن يفعلـوا به خـيراً ، فينطلق لسـانه بشـكرهم ، فكأنما ربط لسـانه بنسعة .

قـال عبد يغـوث بن الحـارث لما أسرته " تيمٌ " : يوم الكلاب الثاني[11] :

أقول وقد شدوا لساني بنسعة
أمعشر تيم
أطلقوا لسانيا

وقد أقرت الشـريعة هـذه العقوبة بالمعنى الثاني ، منذ أن أمر بها النـبي - ﷺ- في غـزاة حـنين ، يـوم توزيع الغنـائم فقـال - ﷺ- " اقطعـوا عـني لسانه".

وهذه سنة الله ماضية في مواجهة من يمس الأخـوة الإسـلامية بسـوء من القول .

ولهذا أنفذها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله

[11] " عقوبـات العـرب على المعاصي " للآلوسي – رحمه الله - .

عنـــه-في الحطيئـــة: جـــرول بن أوس العبسي المتوفي سنة 45 هــ. لما أكـثر من هجـاء الزبرقـان بن بـدر التميمي - رضي الله عنه - فشـــــكاه إلى عمر - رضي الله عنه - فسجنه عمر بالمدينة ، فاستعطفه بأبياته المشهورة ، فأخرجه ، ونهـاه عن هجـاء النـاس ، فقـال : إذاً تموت عيالي جوعاً .... فاشترى عمر - رضي الله عنه - منه أعـــــــراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم .

فـأوقع عمر - رضي الله عنه - بالحطيئة عقوبتين :

حبس الأبدان ، وحبس اللسان .

ثم ترى هذه في تاريخ المسلمين الطويل ، يبذلون العطـاء ، لقطع ألسـنة اللسن ، وكف بـــذاءتهم عن اعـــراض المسلمين .

وإذا كانت هذه عوامل دفع للأذى ، وتطهير للسـاحة الإسـلامية من البـذاء ، فقد حفلت الشـــريعة بنصـــوص الوعيد لمن ظلم ، واعتـــدى ، تنـــذر بعمومها محترفي التصنيف ظلماً وعدواناً ، وظناً وبهتاناً ، وتحريشاً وإيذاءً .

فالظالم : قد ظلم نفسه ، وخسرها ، متبع لهواه ، قد بدل الحق إلى الباطل ، يحول القول إلى غيره ، مفتر ، كـذاب ، حجته أبداً : الهوى ، متعد لحدود الله ، ولهـذا اسـتحق هـذا الوصف البشع : " الظـالم " كما قـال الله تعـالى : ((ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظـالمون)) [البقرة : 229] .

* ومحاصرة للظلم وأهله ، فقد جـاءت النصـوص ناهية عن معاشـرة الظـالم ، والركـون إليه ، وتوليه ، والقعـود معه ، ((فلا تقعد بعد الـذكرى مع القوم الظالمين))
[الأنعام : 68] . والنهي عن السكن في مسـكنه ، ويخـاطب بغـير الـتي هي أحسن ، وأن السـبيل عليه : ((إنما السـبيل على الـذين يظلمـون النـاس)) [الروم : 42] .

والظالم : لايفلح . وليس له من أنصـار . والله لايحب الظـالمين ولا يهـديهم . وليس للظـالم من ولي ولا نصـير . ودائمـاً في ضـلال مـبين . وفي زيـادة خسـار وتبـاب . وعليه اللعنة . وللظـالم سـوء العاقبة ، وقطع دابـره .

والظالم وإن قوي فإن القوة لله جميعـاً . ولاعدوان إلا على الظالمين .
وقد تنـوعت عقوبـات الظلمة والظالمين في هذه الدنيا :
بزجر من السماء . والأخذ بالصاعقة ، وبالطوفان . وتدمير بيوتهم ، وخوائها . وأخذ الظالم بعذاب بئيس ، وأن عقوبة جرمه تعم . وحاله شديدة في غمرات الموت. وللظالم من الوعيد يوم القيامة : الوعيد بالنار ، وبويل ، وبعذاب كبير ، وسيعض على يديه . وسيجد ماعمل حاضراً ولايظلم ربك أحداً .

* وتجريح الناس وتصنيفهم بغير حق ، شعبة من شـعب الظلم ، فهو من كبائر الذنوب والمعاصي ، فاحذر سلوك جادةٍ يمسك منها عذاب .
وقد ثبت من حـديث ابي هريـرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ- أنه قال :
((لتؤدن الحقوق يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرنـاء)) .رواه أحمد ، ومسلم .
وعن أبي ذر - رضي الله عنه - قال :

((سألت النبي - صلى الله عليه وسلم - أي العمل أفضل ؟ قال إيمان بالله وجهاد في سبيله ، قلت : فأي الرقاب أفضل ؟ قال : أعلاها ثمناً ، وأنفسها عند أهلها ، قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : تعين ضائعاً ، أو تصنع لأخرق)) .

قال : فإن لم أفعل ؟ قال :

تدع الناس من الشر ، فإنها صدقة تصدق بها على نفسك))

متفق عليه .

وثبت عن النبي - ﷺ- أنه قال :

((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)) .

وثبت أيضاً أن النبي - ﷺ- قال :

((لاتحاسدوا ولاتناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا،ولا يبيع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله التقوى ههنا- ويشير إلى صدره ثلاث مرات- بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)) .

وثبت أيضاً من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ- قال :
((أتدرون ما المفلس ؟)) قالوا : المفلس فينا من لادرهم له ولا متـــاع . فقـال : ((إن المفلس من أمـتي ، من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصـيامٍ وزكـاةٍ ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هـذا. فيعطى هـــذا من حســـناته وهـــذا من حسناته . فـإن فـنيت حسـناته ، قبل أن يقضى ماعليه ، أخذ من خطايــــــــاهم فطــرحت عليه . ثم طــرح في النــار)) رواه مســلم

وساق الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى- في "الإصابة "عن أم الغادية -رضي الله عنها- قالت:خرجت مع رهط من قـــومي إلى النـــبي - ﷺ- فلما أردت الانصراف ، قلت : يا رسول الله أوصني ، قال :
((إياك ومايسوء الأذن)) .
رواه ابن منده ، والخطيب في " المؤتلف والمختلف " .
وساق أيضاً عن عمر - رضي الله عنه - :

((لا يعجبنكم طنطة الرجل ، ولكن من أدى الأمانة ، وكف عن أعـــــراض الناس فهو الرجل)) .

رواه أحمد في "الزهد "

وساق أيضاً من محاسن شعر أبي الأسود الدؤلي :

لاترسلن مقالة مشهورة
لاتستطيع إذا مضت إدراكها

لاتبدين نميمة نبئتـها
وتحفظـن من الذي أنباكهـا

والنصوص الواردة وفيها بيان أنواع العقوبـات على هـذا في الـدارين ، أكـثر من أن تحصر ، وربما يبتلى " الجــراح " بمن يشـينه بأسـوأ مما رمي به غـيره ، مع ما يلحقه من سوء الذكر حياً وميتاً ، فنعوذ بالله من سوء المنقلب .

فيا محترف الوقيعة في أعراض العلمــاء ، اعلم أنك بهــذه المشــاقة قد خـــرقت حرمة الاعتقـــاد الـــواجب في موالاة علماء الإسلام .

قال الطحاوي - رحمه الله تعالى - في بيان معتقد أهل السنة في ذلك[21] :

((وعلماء السلف من السابقين ، ومن بعــدهم من التــابعين - أهل الخــير والأثر ، أهل الفقه والنظر - لايذكرون إلا بالجميل ، ومن ذكرهم بســوء فهـو على غير سبيل))

قال شارحه - رحمه الله تعالى - :

" قــال تعــالى ((ومن يشــاقق الرسول من بعد مــاتبين له الهـدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصــله جهنم وساءت مصيراً)) [النساء : 115] .

فيجب على كل مسلم بعد موالاة الله ، ورسوله ، مــوالاة المؤمــنين ، كما نطق به القــرآن ، خصوصــاً الــذين هم ورثة الأنبياء ، الــذين جعلهم الله بمنزلة النجــوم ، يهتــدي بهم في ظلمــات الــبر والبحر ، وقد أجمع المســـــــلمون على هـــــــدايتهم ، ودرايتهم ، إذ كل أمة قبل مبعث محمد - ﷺ - علماؤهــا

[21] " العقيدة الطحاوية مع شرحها" : (ص/491).

شـرارها ، إلا المسـلمين فـإن علمـاءهم خيارهم ، فإنهم خلفاء الرسول من أمته ، والمحيـون لما مـات من سـنته ، فبهم قـــام الكتـــاب ، وبه قـــاموا وبهم نطق الكتـــاب وبه نطقـــوا ، وكلهم متفقـــون اتفاقا يقينياً على وجوب اتباع الرسول - ﷺ- ولكن إذا وجد لواحد منهم قـــــول قد جاء حـديث صـحيح بخلافه ، فلابد له في تركه من عذر - ثم ذكرها)) انتهى .

وإني أقول : إن تحرك هؤلاء الذين يجولون في أعراض العلماء اليوم سوف يجـــرون - غـــداً - شـــباب الأمة إلى مـرحلتهم الثانية[31]: الوقيعة في أعـراض الـــولاة من أهل الســـنة ، وقد قيل : " الحركة ولـود ، والسـكون عـاقر " . وهو أسـوأ أثر يجـره المنشـقون وهـذا خـرق آخر لجانب الاعتقاد الـواجب في مـوالاة ولي أمر المسـلمين منهم . " وســوف يحصد الزوبعة من حرك الريح " .

قال الطحاوي - رحمه الله تعالى[41] - :

---

[31] وهي نتيجة حتمية لمنهجهم ، فلهم بالأمس أسلاف في حادثة الحــرم " الســوداء " عــام 1400 هـــ ... اختلفت الأساليب والغاية واحدة.

((ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنــا، وإن جــاروا، ولا نــدعوا عليهم، ولاننزع يداً من طـاعتهم، ونرى طاعتهـم مـــــــن

طاعة الله - عز وجل - فريضة مـــــالم يأمروا بمعصية .

ونـدعو لهم بالصلاح والمعافاة . ونتبع السـنة والجماعة ، ونتجنب الشــذوذ ، والخلاف ، والفرقة)) انتهى .

فاتق الله أيها الجراح ، واعلم أن احترافك التجريح بالتصـنيف مختـبر ينفذ منه النـــاس بـــاليقين إلى وصف منك لــدخائل نفسك ، وماتحمله من ميــول ، ودوافع ، فتقيم الشاهد عليك من فلتات لسـانك ، وإدانة المـرء من فيه أقــوى ، فــــأحكم - رحمك الله - الرقابة على اللســان لايــوردك مــوارد الهلكة ، ولا تمش براحلة العمر - الـــوقت - وأنت تثقلها بهـذه الظـاهرة الفتاكة " ظـاهرة الهدم والتـدمير " فتحـرق في غمرتها : الجهد ، والنشـــاط ، وبواكـــير الحيـــاة

---

[41] " شرح الطاحوية " : (ص/379 - 382).

ومقتبل العمر ، بل وربما خاتمته ، أعاذنا الله وإياك من سوء الخاتمة .

والزم - عافاك الله - تقوى الله ، ومراقبته ، والإنابة إليـــه، واســـتغفاره ، واحذر صنعة المفاليس هذه ، وتدبر هذه الآية :

((ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يسـتغفر الله يجد الله غفـوراً رحيمـاً)) [النساء : 40] .

وقوله تعـــالى : ((فمن تـــاب من بعد ظلمه وأصــلح فــإن الله يتــوب عليه إن الله غفور رحيم)) [المائدة : 39] .

فبادر - ياعبدالله - إلى التوبة ، وأداء الحقـوق إلى أهلها ، والتحلل منهم ، فقد ثبت عن نبي الهدى - ﷺ- أنه قال :

((من كـــانت عنـــده مظلمة لأخيه من عرضه ، أو ماله ، فليؤدها إليه ، قبل أن يـــأتي يـــوم القيامة لايقبل فيه دينـــار ولادرهم ....)) الحـــديث . رواه البخاري .

ولعلي بهذا كما قـال صخر :

لعمري لقد نبهت من كـان نائـماً

وأسمعت من
كـانت لـه أذنان
وكل عبد صـالح يسـمع الخيـر ، سـماع اسـتجابة ، وهـذا شـأن المـؤمن أواهٌ مـنيب ، ومن لحقه الإدبـار فـأبى ، فإليه :
((إن الله يســـمع من يشـــاء وما أنت بمسمعٍ من في القبور))
[فاطَر : 22] .
وأنشـد ابن الشجـري :
إذا نهي السفـيه جرى إليـه
وخالف والسفـيه
إلى خـلاف
وهذا يعاني : " أزمة في الضمير " و " ذبحة في الصـــدر " ، إذ تمكن منه الداء ، وللميـؤس أحكـام بينها الفقهـاء ، نعوذ بالله من الشقاء .

وما بقي لمن أبى إلا الحجر على لسانه لصالح الديانة .
أما من كانت وقيعته ظلماً فيمن عظم شـــأنه في المســـلمين بحق ، فينبغي تغليظ عقوبة الواقع ، إضافة إلى الحجر على لسـانه ، ولهـذا نظـائر في

الشـــريعة ، كوقــوع الظلم في الأشـــهر الأربعة الحـــرم ، والـــرفث والفســـوق والجـــــدال في الحج ، وتغليظ الدية في النفس وفي الجراح في الشهر الحرام ، وفي البلد الحــرام ، وفي ذوي الــرحم ، كما هو مذهب الشافعي ، فهذه وأمثالها محرمات على كل مسلم في كل زمــان ومكــان ، لكن لما عظم الجــرم بتعــدد جهات الانتهاك ، عظم الإثم ، والجزاء .

ولمثل هـــؤلاء - كما قـــال عبد الله بن المبـــــارك - رحمه الله تعـــــالى - :

(تقشــر العصـي) .

والله أعلم .

إلى مــن رُمـــي بالتصـــنيف ظُلْـــــماً

إلى من رُمى بالتصنيف ظُلْماً

اتل ما أوحي إلى نبيك - صلى الله عليه وسلم - :
((ما يقــال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليـم)) [فصلت : 43].
والقرآن العظيم قد حوى قصص أنبيــاء الله ورســله مع أممهم ومايـنــالهم من الأذايا والبلايا في ســبيل الدعوة، ولهــذا فقد وفق من أفـــرد قصصـــهم وشـــرحها، وأحسن كل الإحســان من ألف باسم : " دعــوة الرسل " .
وهذه سنة من الله ماضية لكل من سلك سبيلهم ، واقتفى أثرهم .
ألم تر سير الصحابة والتابعين وأتبــاعهم في كل عصر ومصر إلى عصـــرنا الحــزين ، كيف يقــاومهم المبطلــون ، ويشنع عليهم المبطنون .
وفي هــذا مواقف لا تحصى ، وقصص لا تنسى ، وإذا قرأت كتــاب : " من أخلاق العلمـــاء " رأيت من ذلك عجباً .
فكم في ســيرهم الشــريفة من إمــام ضرب بل قتل ، وإمام

سـجن ، وإمـام عـزل وأهين ، بل فيهم من جمعت له هــذه كلها أو جلها ، بما لبس في حقهم الملبســون ، وأرجف المرجفــون ، وهم منها بــراء ، والمرجفـون في قـرارة أنفسـهم عليها شهداء .

وخذ أمثلة على هـذا فيمن رمي بشناعة وهو منها برئ :

فرمي جماعة من فحـول العلمـاء بالتشـيع ، وآخـرون بالنصب ، وآخـرون بـالتجهم ، وغـير ذلك ، وهم من هـذه النحل الفاسدة براء .

ومنهم - أجزل الله مثوبتهم - من حكي ما وقع له على سـبيل ما من الله به عليه من لـزوم السـنة ، ونصـرتها ، والدعوة إليها ورجـاء مضـاعفة الأجر بما يصنعه الأضداد البؤساء .

وفي حياة الإمام أحمد - رحمه الله تعـالى - وهو يعيش بين محنة الـدنيا والدين ، عبرة للمعتبرين .

وخذ على سبيل المثال : ابن العربي المالكي المتوفى سـنة 543 هـ - رحمه الله تعالى - إذ يقول في فاتحة كتابه : " عارضة الأحوذي " :

((فإن طائفة من الطلبة عرضـوا علي رغبةً صادقة في صرف الهمة إلى شرح كتــاب أبيٍ عيسى الترمــذي، فصــادف مني تبعاداً
عن أمثال ذي ، وفي علم علام الغيوب أني أحرص الناس على أن تكون أوقاتي مستغرقةً في باب العلم ، إلا أني مـنيت بحسدةٍ لايفتنون ؟ ومبتدعة لا يفهمون ، قد قعدوا مني مزجر الكلب يبصبصون ، والله أعلم بما يتربصون :

((قل هل تربصون بنا إلا إحـدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصـيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصــوا إنا معكم متربصون)) [التوبة : 52] .

بيد أن الامتناع عن التصريح بفوائد الملة ، والتــــبرع بفوائد الرحلة لعـــــدم المنصف ، أو مخافة المتعسف ، ليس من شأن العالمين ، أو لم يسمعن قــول رب العالمين لنبيه الكريم :

((فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين)) [الأنعام : 89] .)) انتهى .

وحيــاة بطل الإصــلاح الــديني بالمشــــرق شــــيخ الإســــلام ابن تيمية

المتوفى سنة 728هـ - رحمه الله تعالى - مثلٌ أعلى للعلماء العـاملين ، والـدعاة المصـــلحين من أتبـــاع خـــاتم الأنبيـــاء والمرسلين - ﷺ -

وهـذا عصـريه بـالمغرب الإمـام الشاطبي المتوفى سـنة 79 هــ - رحمه الله تعالى - يحكي حاله لما قام بنصــرة الســـنة ، فجن عليه الليل والنهـــار بقالة السـوء المظلمة ، فيقـول - رحمه الله تعالى[51] - :

(فتردد النظر بين - أن أتبع السنة على شرط مخالفة ما اعتاد الناس فلابد من حصـــول نحو مما حصل لمخـــالفي العوائد ، لاسيما إذا دعي أهلها أن ماهم عليه هو السنة لا سواها إلا أن في ذلك العبء الثقيل مافيه من الأجر الجزيل - وبين أن أتبعهم على شـــــــرط مخالفة السـنة والسـلف الصـالح ، فأدخل تحت ترجمة الضلال عائــذاً بالله من ذلك ، إلا أني أوافق المعتاد ، وأعد من المـؤالفين ، لا من المخــالفين ، فــرأيت أن الهلاك في اتباع السنة هو النجـاة ، وأن النـاس لن يغنـوا عـني من الله شـيئاً ، فأخـذت

---

[51] " الاعتصام " : (1/ 20 – 22) .

في ذلك على حكم التـــــدريج في بعض الأمور ، فقامت علي القيامة ، وتـواترت علي الملامة ، وفوق إلي العتاب سهامه ، ونسبت إلي البدعة والضلالة ، وأنزلت منزلة أهل الغبـــاوة والجهالة ، وإني لو التمست لتلك المحدثات مخرجاً لوجدت ، غير أن ضـيق العطن ، والبعد عن أهل الفطن ، رقي بي مـرتقى صعباً،وضيق علي مجالاً رحبـاً، وهو كلامٌ يشير بظاهره إلى أن اتباع المتشابهات، لموافقة العادات،

أولى من اتـــــباع الواضــــحات ، وإن خالفت السلف الأول .

وربما ألموا في تقبيح ما وجهت إليه وجهتي بما تشمئز منه القلوب ، أو خرجــــــوا بالنســــــبة إلى بعض الفـــرق الخارجة عن الســـنة شـــهادة ستكتب ويسألون عنها يوم القيامة .

فتـارةً نسبت إلى القول بأن الدعاء لاينفع ولا فائـدة فيه كما يعـزى إلى بعض النـــاس ، بســـبب أني لم ألـــتزم الدعاء بهيئة الاجتمـاع في أدبـار الصـلاة حالة الإمامة . وسيأتي مافي ذلك

من المخالفة للسنة وللسلف الصالح والعلماء .

وتارةً نسبت إلي الرفض وبغض الصحابة - رضي الله عنهم - ، بسبب أني لم ألتزم ذكر الخلفاء الراشدين منهم في الخطبة على الخصوص ، إذ لم يكن ذلك من شأن السلف في خطبهم ، ولا ذكره أحد من العلماء المعتبرين في أجزاء الخطب.

وقد سئل " أصبغ " عن دعاء الخطيب للخلفاء المتقدمين[61] فقال :

---

[61] إن كان يقصد الخلفاء الراشدين : أبا بكر، وعمر، وعلي - رضي الله عنهم - فلا، ومن نظر في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في مواضع من " منهاج السنة " رأى أن الترضي عن الخلفاء الأربعة الراشدين في خطبة الجمعة، من حسنات أهل السنة في مواجهة أهل الهوى والبدعة، الذين أنبتوا في وسط المسلمين مقالات الرفض، والنصب، فصار في الترضي عنهم على منابر المسلمين، وشهود عامتهم وخاصتهم، تلقين الناس للمعتقد الحق، ومنابذة ما سواه . فليعلم
وأما الدعاء مطلقاً لولي أمر المسلمين منهم فهو من سنن الهدي .
أنظر : " شرح الطحاوية " (379) و " التأصيل " : (1/ 76- 77) لراقمه ، وأما في خطبة الجمعة ، وداخل الصلاة ففيه بحث حررته في كتاب : " تصحيح الدعاء " .؟

هو بدعة ولا ينبغي العمل به ، وأحسنـــه أن

يـــدعو للمســـلمين عامة . قيل له : فـدعاؤه للغـزاة والمـرابطين ؟ قال : ما أرى به بأسـاً عند الحاجة إليه ، وأما أن يكون شيئاً يصمد له في خطبته دائماً فإني أكره ذلك .

ونص أيضاً عز الدين بن عبد السلام : على أن الـــدعاء للخلفـــاء في الخطبة بدعة غير محبوبة .

وتـارة أضيف إلي القول بجـواز القيـام على الأئمة ، وما أضـافوه إلا من عـدم ذكـري لهم في الخطبة ، وذكـرهم فيها محدث لم يكن عليه من تقـدم .

وتـارة أحمل على التزام الحـرج والتنطع في الـــدين ، وإنما حملهم على ذلك أني الـــتزمت في التكليف والفـــتيا الحمل على

مشهور المذهب الملتزم لا أتعداه ، وهم يتعدونه ويفتون بما يسهل على السائل ويوافق هواه ، وإن كان شاذاً في المذهب الملتزم أو في غيره . وأئمة أهل العلم على خلاف ذلك وللمسألة بسط في كتاب " الموافقات " .

وتارة نسبت إلي معاداة أولياء الله ، وسبب ذلك أني عاديت بعض الفقراء المبتدعين المخالفين للسنة ، المنتصبين - بزعمهم - لهداية الخلق ، وتكلمت للجمهور على جملة من أحوال هؤلاء الذين نسبوا إلى الصوفية ولم يتشبهوا بهم .

وتارة نسبت إلي مخالفة السنة والجماعة ، بناء منهم على أن الجماعة التي أمر باتباعها - وهي الناجية – ما عليه العموم ، ولم يعلموا أن الجماعة ما كان عليه النبي - ﷺ- وأصحابه و التابعون لهم بإحسان.وسيأتي بيان ذلك بحول الله، وكذبوا علي في جميع ذلك، أو وهموا، والحمد لله على كل حال .

فكنت على حالة تشبه حالة الإمام الشهير عبد الرحمن بن بطة الحافظ مع

أهل زمانه ، إذ حكي عن نقسه فقــال : ((عجبت من حالي في سفري وحضري مع الأقـــربين مـــني ، والأبعـــدين ، والعـارفين ، والمنكـرين ، فـإني وجـدت بمكة ، وخـــرا ســـان ، وغيرهما من الأمــاكن أكـثر من لقيت بها موافقــاً أو مخالفـــاً ، دعـــاني إلى متابعته على ما يقوله ، وتصديق قوله والشهادة له فـإن كنت صدقته فيما يقـول وأجـزت له ذلك - كما يفعل أهل هـذا الزمـان - سـماني موافقاً .

وإن وقفت في حرف من قوله أو في شيء من فعله - سماني مخالفاً .

وإن ذكرت في واحد منها أن الكتاب والســـنة بخلاف ذلك وارد ، ســـماني خارجياً .

وإن قرأت عليه حديثاً في التوحيد سماني مشبهاً .

وإن كان في الرؤية سماني سالمياً .

وإن كان في الإيمان سماني مرجئياً .

وإن كان في الأعمـال ، سـماني قدرياً .

وإن كـان في المعرفة سـماني كرامياً .

وإن كان في فضائل أبي بكر وعمر ، سماني ناصبياً .

وإن كان في فضائل أهل البيت ، سماني رافضياً .

وإن سكتُ عن تفسير آية أو حديث فلم أجب فيهما إلا بهما ، ســــــماني ظاهرياً .

وإن أجبت بغيرهما ، سماني باطنياً .

وإن أجبت بتأويل ، سماني أ شعرياً .

وإن جحدتهما ، سماني معتزلياً .

وإن كان في السنن مثل القراءة ، سماني شافعياً .

وإن كان في القنوت ، سماني حنفياً .

وإن كان في القرآن ، سماني حنبلياً .

وإن ذكـرت رجحـان ما ذهب كل واحد إليه من الأخيـــــار -إذ-ليس في الحكم والحديث محاباة-قــالوا:طعن في تزكيتهم .

ثم اعجب من ذلك أنهم يسـمونني فيما يقـرؤون علي من أحـاديث رسـول الله ما يشـــــتهون من هــــذه الأسامي،ومهما وافقت بعضـهم عـاداني غــيره،وإن داهنت جمــاعتهم أسـخطت الله تبـارك وتعـالى،ولن يغنـوا عـني من الله شـــيئاً.وإني مستمسك بالكتــــاب والسنة،وأسـتغفر الله الـذي لا اله إلا هو الغفور الرحيم

هذا تمام الحكاية فكأنه رحمه الله تعـالى تكلم على لسـان الجميـع. فقلما تجد عالماً مشهوراً أو فاضـلاً مـذكوراً ، إلا وقد نُبز بهـذه الأمـور أو بعضـها ، لأن الهـوى قد يـداخل المخـالف ، بل سـبب الخـــروج عن الســـنة : الجهل بها ، والهوى المتبع الغالب على أهل الخلاف ، فــإذا كــان كــذلك حُمل على صــاحب السنة ، أنه غير صاحبها ، ورُجع بالتشنيع عليــه

والتقبيح لقوله وفعله ، حتى ينسب هـذه المناسب .

وقد نُقل عن سـيد العبـاد بعد الصـحابة أويس القـرني أنه قـال : " إن

الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر لم يدعا للمؤمن صديقاً ، نأمرهم بـالمعروف فيشتمون أعراضنا ، ويجدون في ذلك أعواناً من الفاسقين ، حتى - والله - لقد رموني بالعظائم ، وايم الله لا أدع أن أقوم فيهم بحقه " .) انتهى .

وعليه فألق سمعك للنصائح الآتية :

1- استمسك بما أنت عليه من الحق المبين من أنوار الوحيين الشريفين وسُلوك جادة السلف الصالحين ، ولا يحركك تهيج المرجفين ، وتباين أقوالهم فيك عن موقعك فتضل .

وخذ هذه الشذرة عن الحافظ ابن عبدالبر - رحمه الله تعالى[71] - : ((قال أبو عمر : الذين رووا عن أبي حنيفة ، ووثقوه ، وأثنوا عليه أكثر من الذين تكلموا فيه .

والذين تكلموا فيه من أهل الحديث ، أكثر ما عابوا عليه الإغراق في الرأي ، والقياس ، والإرجاء .

وكان يقال : يستدل على نباهة الرجل من الماضين بتباين الناس فيه .

---

[71] " جامع بيان العلم وفضله " : (2/ 439) .

قالوا : ألا ترى إلى علي بن أبي طـالب ، أنه هلك فيه فتيـــان : مُحب أفـــرط ، ومبغض أفرط ، وقد جـاء في الحـديث : أنه يهلك فيه رجلان : محب مُطــــــرٍ ، ومبغض مُفترٍ .
وهــذه صــفة أهل النباهة ، ومن بلغ في الــــــدين والفضل الغاية والله أعلم)) انتهى .
2- لا تبـتئس بما يقولـون ، ولا تحـزن بما يفعلـون ، وخذ بوصـية الله سـبحانه لعبــــده ونبيه نــــوح - عليه الســــلام - ((وأوحي إلى نـــوح أنه لن يـــؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبــــــتئس بما كانوا يفعلون)) [هود : 36] .
ومن بعد أوصى بها يوسف - عليه السلام - أخاه : ((قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون))[يوسف: 69].
3- ولا يثنك هـــذا " الإرجــــاف " عن موقفك الحق ، وأنت داع إلى الله على بصـــيرة فالثبـــات الثبـــات متـــوكلاً على مـولاك - والله يتـولى الصـالحين - قـال تعـالى : ((فلعلك تـارك بعض مـايوحى إليك وضـائق به صـدرك أن يقولـوا لـولا

أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شئ وكيل)) [هــود : 12] .

4- ليكن في ســيرتك وســريرتك من النقاء ، والصفاء ، والشـفقة على الخلق ، ما يحملك على اســتيعاب الآخــرين ، وكظم الغيظ ، والإعراض عن عرض من وقع فيك ، ولا تشــغل نفسك بــذكره ، واستعمل : " العزلة الشعورية " .
فهـــذا غاية في نبل النفس ، وصـــفاء المعدن ، وخلق المسلم .
وأنت بهذا كأنما تُسف الظالم المل .
والأمـــــور مرهونة بحقائقها ، أما الزبد فيذهب جُـفاء .

إلـى كــل مـســـــلم

إلَى كُلِّ مُسْلمٍ

إلى كُل مسلم . إلى كُل من احترف التصنيف فتاب . إلى من رُمي بالتصنيف فصبر . إلى كُل عبد مسلم شحيح بدينه ، يخشى الله ، والــدار الآخــرة . إلى هؤلاء جميعاً مسلمين ، قانتين ، بـاحثين عن الحق على منهـاج النبـوة ، وأنـوار الرسـالة - أسـوق التـذكير والنصـيحة - علماً وعملاً - بالأصول الآتية :

1- الأصل الشرعي : تحـريم النيل من عرض المسلم .

وهـذا أمر معلـوم من الـدين بالضـرورة في إطـار الضـروريات الخمس الــتي

جـــاءت من أجلها الشـــرائع ، ومنها : " حفظُ العرض " .
فيجب على كل مســـلم قـــدر الله حق قـدره ، وعظم دينه وشـرعه ، أن تعظم في نفسه حرمة المســــلم : في دينه . ودمه . وماله . ونسبه . وعرضه .
2- والأصل بنــاء حــال المســلم على الســلامة ، والســتر ، لأن اليقين لا يزيله الشك ، وإنما يُزالُ بيقين مثله .
فاحـذر - رحمك الله - ظـاهرة التصـنيف هذه ، واحـــذر

الاتهامـات الباطلة ، واستسـهال الـرمي بها هنا وهناك ، وانفض يــدك منها ، يخل لك وجه الحق ، وأنت به قرير العين ، رضي النفس .
3- لا يُخـــرجُ عن هـــذين الأصـــلين إلا بـــدليل مثل الشـمس في رائعة النهـــار على مثلها فاشهد أو دع . فالتزام واجب "التـــبين " للأخبـــار ، والتثبت منها ، إذ الأصل البراءة .
وكم من خبر لا يصح أصلاً .

وكم من خبر صحيح لكن حصل عليه من الإضـافات مـالا يصح أصـلاً ، أو حـرف ، وغير ، وبدل . وهكذا .
وبالجملة فلا تُقـرر المؤاخـذة إلا بعد أن تـأذن لك الحُجة ، ويقـوم عنـدك قـائم البرهان كقائم الظهيرة .
وقد أمرنا الله تعـالى بـالتبيُن فقـال سبحانه :
(يا أيها الذين ءامنوا إن جاءكم فاسـقٌ بنبـأٍ فتـبينوا أن تصـيبوا قومـاً بجهالـةٍ فتصـبحوا على مـافعلتم نـادمين) [الحجرات :6] .
وقال تعالى :
(وإذا جـآءهُم أمـرٌ من الأمن أو الخـوف أذاعـوا به ولو ردوه إلى الرسـول وإلى أولي الأمر منهم لعلمـهُ الـذين يسـتنبطونه منهم ولـولا فضـلُ الله عليكم ورحمتهُ لأتبعتُمُ الشيطـان إلا قليلاً)[النساء: 83] .
قال السيوطي - رحمه الله تعالى - :
(نزلت الآية في جماعة من المنافقين ، أو في ضـعفاء المؤمـنين كـانوا يفعلـون ذلك فتضعف قلوب المؤمـنين ، ويتـأذى النبيُ - ﷺ-)[81] .

4- من تجاوزهما بغــير حق مُــتيقن فهو خــارقٌ حُرمة الشــرع بالنيل ظلمــاً من "عرض أخيه المســلم " وهـذا " مفتـون " .
5- يجب أن يكون المسلم على جـانب كريم من سُمُو الخلق وعلو الهمة ، وأن لا يكــون معــبراً تمــررُ عليه الــواردات والمُختـلقات .
6 - يوجد أفــراد شُــغلهم الشــاغل : " تطيير الأخبـار كُل مطـار " يتلقى لسـان عن لسان بلا تثبت ولا روية ، ثم ينشــره بفمه ولســانه بلا وعي ولا تعقل ، فـتراه يقـذف بـالكلام ، ويطـير به هنا وهنـاك ، فاحـــذر طـــريقتهم ، وادفع في وجهها ، واعمل على استصلاح حالهم .
ومن وقع في حبالهم فعليه سل يده من رابطتهم هذه .
7 - الـتزم " الإنصـاف الأدبي " بـأن لا تجحد ما للإنسان من

فضل ، وإذا أذنب فلا تفـــرح بذنبه ، ولا تتخذ الوقـــائع العارضة منهية لحـــال

[81] وانظر في سبيل النزول : " صحيح مســلم "، و " تفسير الطبري " .

الشـــخص ، واتخاذها رصـــيداً يُنفق منه الجراح في الثلب ، والطعن . وأن تـدعو له بالهداية ، أما التزيد عليه ، وأما البحث عن هفواته ، وتصـيدها ، فـذنوب مضافة أخرى .

والرسوخ في الإنصـاف بحاجة إلى قـدر كبير من خلق رفيع ، ودين متين .

وعليه فاحذر قلة الإنصاف :

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة
بين الرجال وإن
كانوا ذوي رحم

8 - احذر " الفتانين " دعاة " الفتنة " الذين يتصيدون العثرات وسيماهُم :

جعل الـــدعاة تحت مطـــــارق النقد ، وقــوارع التصــنيف ، مــوظفين لـذلك : الحـــرص على تصـــيد الخطأ ، وحمل المحتملات على المؤاخــذات ، والفــرح بالزلات والعثرات ، ليمسكوا بها بالحسد والثلب ، واتخاذها ديدناً .

وهــذا من أعظم التجــني على أعــراض المســلمين عامة ، وعلى الــدعاة منهم خاصة .

وسيماهم أيضــاً : توظيف النصــوص في غير مجالها ، وإخراجها في غير براقعها ، لتكثـــير الجمع ، والبحث عن الأنصـــار ، وتغرير الناس بذلك .
فـــإذا رأيت هـــذا القطيع فكـــبر عليهم ، وولهم ظهـــــرك ، وإن اســـــتطعت صد هجومهم وصيالهم فهو من دفع الصائل .
9 - اعلم أن " تصنيف العالم الداعية " - وهو من أهل الســـــنة - ورميـــــــهُ بالنقــائص : نــاقض من نــواقض الــدعوة وإســـهام في تقـــويض الـــدعوة ، ونكث الثقة ، وصرف الناس عن الخير ، وبقدر هذا الصد ، ينفتح السبيل للزائغين .
فاحذر الوقوع في ذلك .
وقد عقدتُ في هـذا مبحثــاً من كتــاب " التعالم " أسوقه هنا للحاجة إليه[91] :
(أســند البخــاري في : كتــاب الشــروط من صـــحيحه: قصة الحديبية ومســـــير النـــبي - صـــلى الله عليه وســـلم - إليها وفيها[02]:

---

[91] (ص / 79 – 87) .
[02] " فتح الباري " : (5 / 335 – 336) .

وسـار النـبي - ﷺ- حـتى إذا كـان بالثنية الـتي يهبط عليهم منها بـركت به راحلته ، فقال الناس : حل حل، فألحت

فقالوا :
خلأت القصـواء ، فقـال النـبي - ﷺ- : ((مـاخلأت القصـواء ومـاذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل)) .
الحديث
قـال الحافظ ابن حجر في فقه هـذا الحديث :
(جواز الحكم على الشـيء بما عـرف من عادته ، وإن جاز أن يطرأ غـيره ، فـإذا وقع من شـخص هفـوة لا يعهد منه مثلها ، لا ينسب إليها ، ويُـرد على من نسـبه إليها ، ومعـذرة من نسـبه إليها ممن لا يعـرف صـورة حاله ، لأن خلأ القصواء لولا خارق العادة لكـان ما ظنه الصـحابة : صـحيحاً ، ولم يعـاتبهم النـبي - ﷺ- على ذلك لعـذرهم في ظنهم) اهـ .
فقد أعـذر النـبي - ﷺ- غـير المكلف من الدواب باستصـحاب الأصل ، ومن قياس الأولى إذا رأينا عالماً عـاملاً

، ثم وقعت منه هنة أو هفوة ، فهو أولى بالإعـــذار ، وعـــدم نســـبته إليها والتشنيع عليه بها - استصحاباً للأصل ، وغمر مابدر منه في بحر علمه وفضله ، وإلا كـــان المعنف قاطعـــاً للطريق ، ردءاً للنفس اللوامة ، وسبباً في حرمان العـــالم من علمه ، وقد نُهينا أن يكـــون أحـــدنا عونـــاً للشـــيطان على أخيه . فما ألطف هذا الاستدلال وأدق هذا المنزع ، ورحم الله الحافظ الكنـــــاني ابن حجر العسقلاني ، على شفوف نظـــره ، وفقه نفسه ، وتعليقه الحكم بمدركه .

قال الصنعاني - رحمه الله تعالى[12] - :

(وليس أحد من أفـــراد العلمـــاء إلا وله نـــادرة ينبغي أن تغمر في جنب فضـــله وتجتنب) اهـ .

وقال أبوهلال العسكري [22] :

(ولا يضع من العـــالم الـــذي بـــرع في علمه : زلةٌ ، إن كـــانت على ســـبيل السهو والإغفال ، فإنه لم يعر من الخطأ إلا من عصم الله جل ذكره . وقد قـــالت

---

[12] سبل السلام : الجزء الأول، نقله عنه أبو مدين الشنقيطي في " الصوارم والأسنة " : (ص / 12) .

[22] شرح ما يقع فيه التصحيف (ص/ 6) .

الحكماء : الفاضل من عُدت سقطاته ، وليتنا أدركنا بعض صـوابهم أو كنا ممن يميز خطأهم) اهـ .
وقد تتـابعت كلمة العلمـاء في الاعتـذار عن الأئمة فيما بــدر منهم ، وأن ما يبدو من العالم من هنات لا تكون مانعـة

للاستفادة من علمه وفضله .
فهذا الحافظ الذهبي - رحمه الله تعـالى - يقــول في ترجمة كبــير المفســرين قتــادة بن دعامة السدوسي المتــوفى سـنة 117 هــ رحمه الله تعـالى بعد أن اعتذر عنه[32] :
(ثم إن الكبــير من أئمة العلم إذا كــثر صــــوابه ، وعلم تحريه للحق ، واتسع علمه ، وظهر ذكـاؤه ، وعــرف صـلاحه وورعه واتباعه يغفر له زللة ، ولا نضـلله ونطرحه وننسى محاســـــنه ، نعم : لانقتــدي به في بدعته وخطئه ونرجو له التوبة من ذلك) اهـ .

---

[32] " السيرة " : (5 / 271) .

وقـال أيضـاً في دفع العتـاب عن الإمـام محمد بن نصر المـــــروزي - رحمه الله تعالى [42]- :
(ولو أنا كلما أخطأ إمــام في اجتهــاده في آحــاد المســائل خطأ مغفــوراً له ، قمنا عليه ، وبـدعناه وهجرنـاه لما سـلم معنا لا ابن نصر ولا ابن منـــده ، ولا من هو أكــبر منهما ، والله هو هــادي الخلق إلى الحق ، وهو أرحم الراحمين ، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة) اهـ .

وقال في ترجمة إمـام الأئمة ابن خزيمة المتــوفى ســنة 311 هـــ - رحمه الله تعالى [52]:
(وكتابه : في التوحيد . مجلد كبـــير . وقد تأول في ذلك حديث الصورة .
فليعـذر من تـأول بعض الصـفات ، وأما السـلف فما خاضـــوا في التأويل ، بل آمنوا وكفوا ، وفوضوا علم ذلك إلى الله ورســـــوله ، ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده - مع صـحة إيمانه وتوخيه لاتبـاع الحق - أهدرناه وبدعناه ، لقل من يسلم

---

[42] " السيرة " : (14 / 40) .
[52] " السيرة " : (14 / 374) .

من الأئمة معنا . رحم الله الجميع بمنه وكرمه) اهـ .
وقال في ترجمة : باني مدينة الزهراء بالأندلس : الملك الملقب بأمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد صاحب الأندلس المتوفى سنة 350هـ [62]:
(وإذا كان الرأس عالي الهمة في الجهاد ، احتملت له هنات ، وحسابه على الله ، أما إذا أمات الجهاد ، وظلم العباد ، وللخزائن أباد ، فإن ربك لبالمرصاد) اهـ .
وقال في ترجمة : القفال الشاشي الشافعي المتوفى سنة

365 هـ - رحمه الله تعالى[72] - :
(قال أبو الحسن الصفار : سمعت أبا سهل الصعلوكي ، وسُئل عن تفسير أبي بكر القفال ، فقال : قدسه من وجه ودنسه من وجه ، أي : دنسه من جهة نصره للاعتزال .

---

[62] " السيرة " : (15 / 564) .
[72] " السيرة " : (16 / 285) .

قلت : قد مر موته ، والكمـــــال عزيز ، وإنما يمــــدح العـــالم بكـــثرة ماله من الفضائل ، فلا تـدفن المحاسن لورطـةٍ ، ولعله رجع عنها . وقد يغفر له في اســــــــــتفراغه الوسع في طلب الحق ولاحول ولا قوة إلا بالله) اهـ .
وبعد أن ذكر بعض الهفـــوات لأبي حامد الغزالي المتوفى سـنة 505 هــ - رحمه الله تعالى- قال[82] :
(قلت : الغــزالي إمــام كبــير ، وما من شــرط العــالم أنه لا يخطئ) اهـ .
وقال أيضاً [92]:
(قلت : مــازال الأئمة يخــالف بعضــهم بعضاً ، ويرد هذا على هذا ، ولســنا ممن يذم العالم بالهوى والجهل) اهـ .

وقال ايضاً [03]:

---

[82] " السيرة " : (19 / 339) .
[92] " السيرة " : (19 / 342) .
[03] " السيرة " : (19 / 346) .

(فرحم الله الإمام أبا حامد ، فأين مثله في علومه وفضـــائله ولكن لانـــدعي عصمته من الغلط والخطأ . ولاتقليد في الأصول) اهـ .

ونبه على على حال مجاهد فقال[13] :

(قلت : ولمجاهد أ قــوال وغــرائب في العلم والتفسير تُستنكر) اهـ .

وقال في ترجمة ابن عبد الحكم [23]:

(قلت : له تصــانيف كثــيرة ، منها : كتــاب في الــرد على الشــافعي . وكتــاب أحكــام القــرآن . وكتــاب الــرد على فقهــاء العــراق . ومــازال العلمــاء قديماً وحديثاً يرد بعضهم على بعض في البحث وفي التواليف ، وبمثل ذلك يتفقه العالم ، وتتــبرهن له المشــكلات ، ولكن في زمننا قد يعــاقب الفقيه إذا اعتــنى بــذلك لســوء نيته ، ولطلبه للظهــور والتكــثر ، فيقــوم عليه قضــاة وأضداد ، نسأل الله حســـــن

---

[13] " السيرة " : (4 / 455) .

[23] " السيرة " : (12/ 500 – 501) .

الخاتمة وإخلاص العمل) اهـ .
وفي ترجمة إسماعيل الـتيمي المتـوفى سنة 535 هـ أنه قال[33] : (اخطأ ابن خزيمة في حـديث الصـورة ، ولا يطعن عليه بذلك بل لا يؤخذ عنه هذا فحسب . قال أبو موسى - المديني - : أشار بهـذا إلى أنه قل إمام إلا وله زلة ، فـإذا تـرك لأجل زلته ، ترك كثـير من الأئمة ، وهـذا لا ينبغي أن يفعل) اهـ .
فهذا الذهبي نفسه[43] قد تكلم رحمه الله تعالى - في أن علـوم أهل الجنة تسـلب عنهم في الجنة ولا يبقى لهم شـــعور بشئ منها . وقد تعقبه العلامة الشـوكاني في فتـاوه المسـماة : الفتح الرباني . وذكر إجماع أهل الإسـلام على أن عقول أهل الجنة تزداد صفاءً وإدراكاً - لـذهاب ماكـان يعـتريهم في الـدنيا . وسـاق النصـوص في ذلك . منها قوله تعـالى ((يليت قـومي يعلمـون بما غفر لي ربي وجعلني من المُكرمين)) .

---

[33] " السيرة " : (20 / 88) .
[43] " أبجد العلوم " لصديق خان رحمه الله تعالى : (1 / 15 - 20) .

وقـال شـيخه شـيخ الإسـلام ابن تيمية النميري – رحـمه الله

تعـالى - ، في جـواب له بإبطـال فتـوى قضـــاة مصر بحبسه وعقوبته من أجل فتواه بشأن شد الرحل إلى القبور[53] :

(إنه لو قدر أن العالم الكثير الفتاوى ، أفـتى في عـدة مسـائل بخلاف سـنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابتة عنه ، وخلاف ما عليه الخلفاء الراشدون : لم يجز منعه من الفتيا مطلقـــاً ، بل يبين له خطؤه فيما خالف فيه ، فمـازال في كل عصر من أعصـــار الصـــحابة والتـــابعين ، ومن بعـــدهم من علمـــاء المسلمين من هو كذلك ......) اهـ .

وهذا الإمام الحافظ ابن حبـان المتـوفى سنة 354 هـ رحمه الله تعالى فاه بقوله : النبـــوة العلم والعمل . فهُجر وحُكم عليه بالزندقة وكتب فيه إلى الخليفة فكتب بقتله .

---

[53] " مجموع الفتاوى " : (27 / 311) .

لكن أنصــفه المحققــون من أهل العلم فوجهـــوا قوله واســـتفادوا من علمه وفضله منهم : ابن القيم[63] ، والذهبي [73]، وابن حجر[83] في سواهم من المحققين .

ومما قاله الذهبي :
(قلت : وهــذا أيضــاً له محمل حسن ، ولم يرد حصر المبتدأ في الخــبر . ومثله : الحج عرفة ، فمعلـــــوم أن الرجل لا يصير حاجاً بمجرد الوقـوف بعرفة ، إنما ذكر مهم الحج ، ومهم النبــوة ، إذ أكمل صفات النبي : العلم والعمل ، ولا يكـون أحد نبياً إلا أن يكون عالمـاً عـاملاً . نعم النبـــوة موهبة من الله تعـــالى لمن اصـطفاه من أولي العلم والعمل لا حيلة للبشر في اكتســابها أبـــداً ، وبها يتولد العلم النافع والعمل الصالح .

---

[63] " مفتاح دار السعادة " .
[73] " تذكرة الحفاظ " : (3 / 922) .
[83] (لسان الميزان) : (5 / 113 – 116) .

ولا ريب أن إطلاق ما نقل عن ابي حاتم : لا يسوغ ، وذلك نفسٌ فلسفي) اهـ .
وهذا العلامة أبو الوليد البـاجي المـالكي المتوفى سنة 474 هـ رحمه الله تعالى افــترع القــول بارتفـاع أمية النــبي - -لقصة الحديبية فقــام عليه أهل عصــره حتى حكموا بكفره .
وقال بعضهم فيه :

عجبت ممن شرى دنياً بآخرة
وقال إن رسول الله قد كتبا

ثم تطــامنت الفتنة وأوضح المحققــون بأن واقعة الحديبيــة لا

ســبيل إلى إنكارها لثبوتها لكنها لا تنفي الأمية ، كما أن النــبي - - بُعث في العـــــــــرب وهم أمة أمية لا تكتب ولا تحسب ومع هـــــذا يوجد فيهم من يكتب مثل كتــاب الــوحي - لكنهم على نــــدرة ولم ينف هــــذا أمية أمته - - من العــــرب . حقق ذلك الحافظ الـــذهبي رحمه الله تعــالى في ترجمة الباجي من السير [93].

---

[93] " السيرة " : (18 / 540) .

ولعصـــرينا ابن حجر القاضي القطـــري كتـــاب حافل باسم : الـــرد الشافي الـوافر على من نفى أمية سـيد الأوائل والأواخر .

وهـــذا عبد الملك بن حـــبيب رحمه الله تعـــــالى من أعلام الفقه المـــالكي . عيب عليه أشـــياء ولم يُهجر رحمه الله تعالى [04].

والجيـــاني : أحمد بن محمد بن فـــرج اللغـــوي الشـــاعر ، لحقته محنة لكلمة عامية نطق بها ، نقلوها عنه ، وكـان سـجنه بسـببها في زمن : الحكم بن عبد الرحمن الناصر المتـوفى سنة 336 هـ [14].

---

[04] " لسان الميزان " : (4 / 64) .

[14] " الصلة " لابن بشكوال : (1 / 5) .

وانظر : ترجمة أبي حيـان التوحيـدي ففيها مع فسـاد معتقد ، أشـــياء من هـــذا كما في : " لســان الميزان " : (7 / 38 – 41) . ونحوها لأبي طالب المكي صاحب " قوت القلـوب " كما في : " الميزان " : (3 / 655) ، و " لسان " : (5 / 300) .

وهؤلاء الأئمة : ابن الأثير ، وابن خلـدون ، والمقريـزي قد صـحـحوا النسب الفاطمي للعبيـديين . وقد صـاح المحققون على القائلين بهذا منهم : ابن تيمية ، وابن القيم ، والـذهبي ، وابن حجر وغيرهم في القديم والحـديث .

والمـؤرخ ابن خلـدون أيضـاً عقب عليه الهيتمي بأنه لما ذكر الحسـين بن علي - رضي الله عنه - في تاريخه قال [24] :

(قتل بسيف جده) .

لكن دافع الحافظ ابن حجر عن ابن خلـدون بـأن هـذه الكلمة لم توجد في التـاريخ الموجـود الآن ولعله ذكرها في النسـخة الـتي رجع عنها .

وقد تتابع الغلط على ابن خلـدون أيضـاً في أنه يحط على العرب من أنهم أهل ضعن ووبر لا يصـلحون لـملك ولا

---

[24] " الضـوء اللامع " : (3 / 147) ، " الإعلان بالتوبيخ " : (ص / 71) .

سياسة .... وابن خلدون كلامه هـذا في " الأعـــراب " لا في " العـــرب " فليعلم .
فهذه الآراء المغلوطة لم تكن سـبباً في الحرمـان من علـوم هـؤلاء الأجلة بل مازالت منارات يهتدي بها في أيدي أهل الإسـلام . وما زال العلمـاء على هـذا المشـرع ينبهـون على خطأ الأئمة مع الاسـتفادة من علمهم وفضـلهم ، ولو سـلكوا مسـلك الهجر لهـدمت أصـول وأركان ، ولتقلص ظل العلم في الإسلام ، وأصبح الاختلال واضـحاً للعيـان . والله المستعان .
وكان الشيخ طـاهر الجزائـري المتـوفى سنة 1338 هـ رحمه الله تعـالى يقـول وهو على فراش الموت [34] :
(عـدوا رجـالكم ، واغفـروا لهم بعض زلاتهم ، وعضوا عليهم بالنواجذ لتستفيد الأمة منهم ، ولا تُنفـروهم ، لئلا يزهـدوا في خدمتكم) اهـ .

---

[34] " كنوز الأجداد " .

وينتظم ما سلف تحقيق بالغ للإمـام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى ذكـره في مباحث الحيل من " إعلام الموقعين " (3/ 298-294) فانظره .

وإنما أتيت على النقـول المتقدمة مع كثرتهـا، لعمـوم البلـوى على أهل العلم من بعض الجهـال ... إذا حصل له رأي عن قناعة ودراية في مسـألة فقهية فروعية - يكـادون يُزهقونه ويجهـزون عليه لتبقى الريـادة الوهمية لهم ، والله المستعان على ما يفعلون .
أما المبتدعة فلا والله ، فإنا نخـافهم ونحذرهم ، ولواجب البيـان نُحـذرُهُم من بدعهم ، فاحذر مخالطهم ، والتلقي عنهم ، فـإن ذلك سم نـاقع " انتهى من كتاب : "التعالم " .
10- قد تـرى الرجل العظيم يشـار إليه بالعلم والدين، وقفز القنطرة في أبواب التوحيد على أصـول الإسـلام والسـنة وجـادة سـلف الأمة ، ثم يحصل منه هفـوة ، أو هفـوات، أو زلـة، أو زلات .

فلتعلم هنا : أنه ماكل عـــــالم ولا داعية كـذلك يؤخذ بهفوته ، ولا يُتبع بزلته ، فلو عُمِل ذلك لما بقي معنا داعية قط ، وكُلٌ رادٌ ومردُودٌ عليه ، والعصمة لأنبياء الله ورسله .
نعم : يُنبه على خطئه ، ولا يُجـــــرم به ، فيُحــرمُ النــاسُ من علمه ودعوته ، وما يحصل على يديه من الخير .
ومن جــرم المخطئ في خطئه الصــادر عن اجتهاد له فيه مسرحٌ

شرعاً ، فهو صـاحب هـوى يحمل التبعة مرتين :
تبعة التجريم ، وتبعة حرمـان النـاس من علمه ، بل عليه عدة تبعات معلومة لمن تأملها .
11 - قد تــرى الرجل العظيم ، يشــار إليه بــالعلم والــدين ، وقد ينضــاف إلى ذلك نزاله في ساحات الجهـاد ، وشُـهود سنابك الجياد ، وبارقة السيوف ، ويكون له بجـانب ذلك هنـات وهنـات في توحيد العبـادة ، أو توحيد الأسـماء والصـفات ، ومع هـذا فـترى نظـراءه من أهل العلم

والإيمان ممن سـلم من هـذه الهنـات ، يشهدون بفضله ويقرون
بعلمـــه، ويـــدينون لفقهه ، وعلو كعبـــه، فيعتمـــدون كتبه وأقوالـــه، ولا يصـــرفهم هذا عن هذا : " وإذا بلغ المـاء قُلـتين لم يحمل الخبث " .
ولا تمنعه الاســـــتفادة منه من البيـــــان بلطف عما حصل له من عـــــثرات ، بل يبينونها ويســـألون الله أن يُقيل عثرته ، وأن يغفرها بجانب فضله وفضيلته .
وخذ شـاهداً في حـال المعاصـرة : إن شداة اعتقاد السلف - كثر الله جمعهم - يكُـــدُون ليلهم ، ونهـــارهم ، ويبـــذلون وُكـدهم في تحضـير الرسـائل الجامعية لعدد من وجوه أهل العلم في دراسة حيـــــاتهم ، وســـــيرهم ، وجمع شمائلهم ، وتحقيق كتبهم ، ونشـرها بين الناس، ويرون هذا قربة بعلمٍ يُنتـفع به.
وتتســـابق كلمة علمـــاء العصر بالمـــدح والثناء .
وبهـذا تعلم أن تلك البـادرة " الملعونة " من تكفير الأئمة :
النـــــووي ، وابن دقيق العيد ، وابن حجر العســـقلاني - رحمهم الله تعـــالى - أو

الحط من أقـــــدارهم ، أو أنهم مبتدعة ضــلال . كل هــذا من عمل الشــيطان ، وباب ضلالة وإضلال ، وفســاد وإفســاد ، وإذا جُرح شهود الشــرع جُـرح المشـهود به ، لكن الأغرار لا يفقهون ولا يتثبتـون ، فهل من مُنفذٍ في الواقعين نصيحة زيـاد فيما ســاقه ابن عبد الـــبر - رحمه الله

تعــالى - بســنده أن زيــاداً خطب على منبر الكوفة فقال :
" أيها الناس إني بُتُ ليلـتي هـذه مُهتمـاً بخلال ثلاث رأيت أن أتقــدم إليكم فيهن بالنصيحة :
رأيت إعظـــام ذوي الشـــرف ، وإجلال ذوي العلم ، وتوقير ذوي الأسنان .

والله لا أوتى برجل رد على ذي علم ليضع بذلك منـــه إلا

عاقبته .... إلى أن قال :
إنما الناس بأعلامهم ، وعلمائهم ، وذوي أسنانهم " [44].

[44] " جامع بيان العلم " : (1 / 64) .

الفهرس

12 - وإن سـألت عن الموقف الشـرعي من انشـقاق هـؤلاء بظـاهرة التجريح ، فأقول :

أ - احذر هـذا الانشـقاق لا تقع في مثله مع " المنشـقين الجـراحين " المبـذرين للوقت والجهد والنشاط في قيل وقـال ، وكثرة السؤال عن " تصـنيف العبـاد "،

وذلك فيما انشقوا فيه، فهو ذنب تلبسوا به ، وبلــــوى وقعـــوا فيها ، وادع لهم بالعافية.
ب - إذا بُليت بالـــــذين يـــــأتون في مجالسهم هـذا المنكر " تصـنيف النـاس بغير حق " واللهث وراءه ، فبـادر بإنفـاذ أمر الله في مثل من قال الله فيهم :
((وإذا رأيت الــذين يخوضــون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضـوا في حـديثٍ غــيره وإما ينســينك الشــيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين)) [الأنعام : 68] .

وفي هــذا القــدر كفاية – إن شــاء الله تعالى - وفيما كتبت في : " حلية طـالب العلم " ، و " التعـــــــالم " ، و " هجر المبتدع " " وحكم الانتمـاء " ، و " الـرد على المخالف " أصول نافعة .

والله تعالى أعلم .

انتهـــــى .

بكـــــر بن عبد الله أبو زيـــــــــد

8 / 3 / 1413 هـ

الحاشية